مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

تلاحم القصة مع سورتها في القرآن

جوهر محمد داود
باحث إماراتي

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 22 غشت 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

تلاحم القصة مع سورتها في القرآن[1]

1 - مقتطف من كتاب نَظْمُ القُرْآن قراءةٌ جديدةٌ فِي تَجَانُس إيقاعِهِ وَتَلَاحُم بنَائِهِ، جوهر محمد داود، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع.

تقديم

لقد بحثنا في الفصل السابق تلاحم البناء اللغوي في القرآن بصورة عامة دون أن نتقيد باستقاء أمثلتنا من موضوع محدد. كنا نستقي أمثلتنا من جميع الأغراض التي يتناولها القرآن: من مشاهد القيامة، والخلق والتكوين، والجدل مع المشركين، ومن سياق إثبات ربانية الوحي، ومن ميدان التشريع، ومن وقائع السيرة النبوية، ومن قصص المرسلين؛ ذلك لأنّ الهدف في ذلك الفصل كان إثبات وجود تلاحم البناء اللغوي بين أجزاء السورة القرآنية بصرف النظر عن الموضوعات التي تعرض لها السورة. أما في هذا الفصل، فنريد أن ننتقل إلى مستوى آخر من إثبات وجود ذلك التلاحم من خلال التركيز على موضوع واحدٍ هو القصة في القرآن. إنّ التركيز على موضوع محدد للبرهنة على قاعدة تلاحم البناء اللغوي في القرآن يمنحنا فرصة جديدة لاختبار ذلك القانون العام، قانون تلاحم البناء اللغوي في القرآن الذي كشفنا عنه في الفصل الأول، في موضوع هو من أبرز الموضوعات القرآنية وهو القصة في القرآن.

لقد اخترنا القصة في القرآن لما تشتمل عليه من خصائص لا تبرز بروزها في غيرها. فمن هذه الخصائص أنَّ القصة في القرآن ذاتُ بنيةٍ سرديَّةٍ متميزةٍ داخل السورة تمنحها قدرًا من الاستقلال. فهي ذاتُ أَعْلامٍ تُنسب إلى أسماء الأبطال الرئيسيّين فيها ونشير إليها بقولنا: قصة آدم، وقصة نوح، وقصة إبراهيم، وقصة موسى، وهكذا، بينما نشير إلى الموضوعات القرآنية الأخرى بأسماء عامة كمشاهد القيامة، والجدل مع المشركين، والخلق والتكوين، وغيرها. كما أنَّ القصة تبدأ بأدوات سردية معينة تُؤْذِنُ ببداية الأحداث، مثل: «وإذْ قال» كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: 30] في بداية قصة آدم في البقرة، ومثل: «هل أتاك» كما في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [الذاريات: 24] في بداية قصة إبراهيم، ومثل: «واتْلُ عليهم» كما في قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ**﴾ [المائدة: 27]، وغيرها من الأدوات الاستهلالية التي تبدأ بها سلسلة قصص المرسلين، التي أشرنا إليها في الفصل السابق. وتنتهي غالبًا بتعقيبات وعظية تشير إلى نهايتها، كما في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ**﴾ [هود: 49]، في نهاية قصة نوح في سورة هود. ولكن مع هذا التميز في بنيتها السردية، تظل القصة مرتبطةً بالسورة التي تقع فيها من خلال أواصر لغوية مشتقة من معجم تلك السورة. فهذا المزيج من التميز والارتباط في آنٍ واحدٍ يعطي قانون تلاحم البناء اللغوي برهانًا إضافيًّا على صدقه، وجلاءً أكبر لطريقة عمله في القرآن.

ومن خصائص القصة في القرآن أنها من أحفل الموضوعات القرآنية بالحوار لا يجاريها في ذلك إلا مشاهد القيامة. والحوار من أهم الوسائل التي يتم من خلالها تحريك أحداث القصة إلى غايتها النهائية. ومن أبرز ما يتسم به الحوار في القرآن بصفة عامة، وفي القصة بصفة خاصة، أنَّ أبطال القصص يستعير بعضُهم من بعضٍ ألفاظًا وعباراتٍ يتداولونها بينهم داخل السورة الواحدة، بصِيَغٍ تدل على ارتباط القصة بأواصر لغوية فريدة في السورة التي تقع فيها. فقد تتمّ عملية الاستعارة هذه في نفس السورة بين قصة وقصة، أو بين قصة وأي جزء آخر من السورة. إنّ هذه الحركة، حركة استعارة الكلمات وتداولها بين أصوات السرد المختلفة في القرآن حركةٌ

دائبةٌ، وذاهبةٌ آيبةٌ تنتقل فيها الألفاظ والعبارات بين الأصوات المختلفة، ومنها صوت الوحي الذي في مركز تلك الحركة، ولكنها تكون أظهرَ ما تكون في القصة؛ لأننا نعرف الأبطال الذين تجري الكلمات على ألسنتهم. ولقد مرَّتْ بنا نماذج عديدة من الاستعارة والتداول في الفصل السابق كالذي رأيناه في آيات الاستفزاز الثلاث في سورة الإسراء، وسنرى المزيد منها في هذا الفصل.

ومن خصائص القصة في القرآن أنَّ حلقاتٍ منها تتكرر في سور مختلفة بألفاظ شديدة التقارب وعبارات شديدة التداخل. ولكن مع هذا التقارب الشديد في الألفاظ والتداخل الشديد في العبارات تظل كلُّ حلقةٍ مختلفةً عن الحلقات الأخرى من جهة، وتظل كذلك مرتبطة بالسورة التي ترد فيها برباطٍ لغويٍّ فريدٍ ووثيقٍ من جهة أخرى. والسبب في ذلك، أن النظم القرآني يختار لكل حلقةٍ ألفاظًا وعباراتٍ دقيقةً تشتمل على خصائصَ لغويةٍ تميزها عن غيرها من الحلقات الواردة في السور الأخرى، رغم التشابه الشديد الذي يكاد يبلغ حدَّ التطابق بين تلك الحلقات. وَيَصْدُقُ هذا التميُّزُ في جميع الحلقات، في الحلقات الطويلة والمتوسطة والقصيرة، وحتى في الحلقة التي تتكون من آية واحدة كقصة آدم وإبليس في سورة الكهف [الكهف: 50]، على ما سنرى في هذا الفصل. وهذا برهانٌ آخَرُ على أنَّ التكرار هو أساس الإبداع في القرآن، وهو مدار الإعجاز فيه، وفيه تتجلى عظمة القدرة القادرة التي تصوغ آيات شديدة التشابه ثم تُفرِّقُ بينها بخصائص لغوية دقيقة للغاية لا تظهر للعين إلا بعد الدراسة الفاحصة والتمحيص الدقيق. وقد مرَّتْ بنا أمثلةٌ كثيرةٌ من هذا القبيل في الفصل السابق، وسيأتينا المزيد منها في هذا الفصل. ومن المفارقات الكبرى أن يكون التكرار في القرآن بوجهٍ عامٍّ، وفي القصة بوجهٍ خاصٍّ، تهمةً حاول العلماء تبرئة القرآن منها على مدار القرون بالتماس أعذارٍ بلاغيةٍ مختلفةٍ له؛ ذلك لأنَّ التكرار – حسب فهمهم – مما يعيب الكلام.[1]

إنَّ هذه الخصائص الثلاث هي التي تجعل القصة موضوعًا ملائمًا لدراسة تلاحم البناء اللغوي في القرآن. ولكننا لن ندْرُس كل القصص القرآنية في هذا الفصل، ولا كل حلقات القصة الواحدة، وإنما نكتفي بدراسة قصة آدم وقصة موسى كنموذجين بارزين يدلان على الأنساق اللغوية المتبعة في ربط كل قصة بالسورة التي تقع فيها ربطًا فيه التفرد، وفيه الإحكام، وفيه القصد، وفيه التصميم. نقتصر على هاتين القصَّتَيْنِ لعددٍ من الأسباب. أولها أنّ القصة في القرآن موضوع كبير يشغل نحو ثلث مساحة القرآن، فهو لذلك يستحق كتابًا مفردًا يقع في مجلدات. والثاني أن قصة آدم هي قصة البشرية الأولى، وَعَرْضُ تجربته مع إبليس على بَنِيه من أهم أهداف القرآن. والثالث أن قصة موسى هي أشد القصص تكرارًا في القرآن، مما يجعلها عيِّنَةً صالحةً تُغْني عن غيرها. والرابع أننا حين نَدْرُس قِصَّتَيْ آدم وموسى، نَعْرِضُ لحلقاتٍ من القصص الأخرى بالضرورة لِمَا بين القِصص القرآنية المختلفة من تداخل في المفردات والعبارات، وتشابك في الأغراض والغايات.

---

1 على سبيل المثال، انظر: أبا سليمان حَمْدَ بنَ محمد بن إبراهيم الخطّابي، **بيان إعجاز القرآن**، في **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرُّمَّاني والخَطَّابي وعبد القاهر الجرجاني**، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام (القاهرة: دار المعارف، 1956)، 52. وبدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، 628 وما بعدها. والدكتور فضل حسن عباس، **القصص القرآني: إيحاءاته ونفحاته** (عمّان: دار الفرقان، 1987)، 13. هذا الكتاب الأخير مخصص كله لنفي التكرار عن القصة في القرآن.

وسنرى في القصة ما رأيناه في نصوص القرآن الأخرى من أنواع التلاحم الثلاثة التي مرّتْ بنا. وسنرى كذلك نوعًا رابعًا أشرنا إليه فيما سبق ولم نعرِّفْه ولم نذكر له أمثلة. فللتذكير، نعيد هنا ذكر الأنواع الثلاثة ونذكر معها النوع الرابع:

النوع الأول: أن تتكرر في السورة كلمة لا نظير لها في سورة أخرى.

النوع الثاني: أن تتكرر في السورة عبارة أو تركيب لغوي لا نظير له في القرآن.

النوع الثالث: إنشاء آياتٍ جديدةٍ باستعمال كلماتٍ وردت في نصٍّ سابق.

النوع الرابع: أن يكثر تكرار عنصر لغوي معين في سورة بعينها أكثر من غيرها.

بعد هذا التقديم الذي نرجو أن يكون قد أبان عن هدف هذا الفصل، ننتقل إلى صلب دراستنا لتلاحم القصة مع سورتها في القرآن. ونبدأ بقصة آدم عليه السلام.

قصة آدم عليه السلام

ترِد قصة آدم في سبع سور في القرآن هي: البقرة [30-38]، والأعراف [11-23]، والحجر [28-44]، والإسراء [61-65]، والكهف [50]، وطه [115-124]، وص [71-85]. وترِد دائمًا مقترنة بقصة إبليس. هذه الحلقات السبع تتفاوت في الطول، وتختلف مواقعها في السورة، وتتباين الجوانب التي تركز عليها. ولكن السمة المشتركة بينها جميعًا أنَّ كل حلقة تأتي متناسقة مع السورة التي تقع فيها، في مفرداتها وفي تراكيبها وفي فاصلتها، تناسقًا يمنع نقلها من بيئتها اللغوية إلى بيئةٍ أخرى، شأنها شأن جميع القصص في القرآن. ندرك هذا من النظرة الأولى إلى نص القصة. ولكنَّ وراء هذه الصورة الخارجية تفاصيلَ أخرى دقيقة تكمن فيها الأواصر اللغوية الفريدة التي تُحْكِمُ ارتباط القصة بسورتها. ونحن في دراستنا للتلاحم اللغوي لقصة آدم مع السورة التي ترِد فيها نختار بعض الآيات الدالة على ما نريد إثباته، ولا ننقل كل القصة، كما أسلفنا.

في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 30]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 124]. تقع هاتان الآيتان في موقعين متباعدين في سورة البقرة، وتستهلّان قصَّتَيْن مختلفَتَيْن بَالِغَتَي الأهمية في تاريخ الإنسان الوجودي والروحي. فالآية الأولى تستهل قصة آدم عليه السلام وهو أبو البشر، والثانية تستهل قصة إبراهيم وهو أبو الأنبياء. إنَّ آدم عليه السلام نزل من الجنة بعد الابتلاء الذي أغواه فيه الشيطان لتتم حكمة الله، ويكون خليفةً في الأرض، ويكون له فيها ذريةٌ تقوم بالخلافة من بعده. وإنَّ إبراهيم

جعله الله للناس إمامًا بعد أن ابتلاه بكلماتٍ فأتمهن وهو من ذرية آدم. ولعل هذا هو السر الذي لم تُدركه الملائكة حين استغربوا استخلاف آدم في الأرض، فقال لهم الله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فالعلاقة المعنوية بين الآيتين واضحة.

لكن النظم القرآني لا يكتفي بهذه العلاقة المعنوية على وضوحها الشديد، وإنما يعطيها صورةً لفظيةً ملموسةً من خلال تركيب متفرد لا يظهر في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾. فلا تأتي كلمة «إِنِّي» متبوعةً بكلمة «جاعل»، بل لا تأتي متبوعةً بمادة «جعل» أصلًا، في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة البقرة. وإذا علمنا أن كلمة «إني» تتردد في القرآن مائةً وثمانيًا وثلاثين مرة، وأنَّ مادة «جعل» ثلاثمائةٍ وستًّا وأربعين مرة، أدركنا أن هذا التركيب لم يأتِ صدفةً وإنما جاء عن قصدٍ وتصميم.

ومما يقطع بارتباط هاتين القصتين في اللفظ وفي المدلول أننا نجد في نهاية هذه الحلقة من قصة آدم آيةً أخرى تشتمل على آصرة لغوية متفردة تربطها بالآية الثانية [البقرة: 124]. قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]. في هاتين الآيتين، [البقرة: 37] و[البقرة: 124]، يلتقي آدم وإبراهيم في الكلمات التي تَلَقَّيَاها عن الله، فكانت سببًا لقبول توبة الأول واستخلافه في الأرض، وكانت سببًا في جعل الثاني إمامًا للناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]. وفي الحالتين ابتلاء ثم اجتباء. هذا من حيث المدلول. أما من حيث اللفظ، فإن لفظة «كلمات» تقع في القرآن بصيغتها هذه، صيغة جمْع السلامة للمؤنث، ثلاثَ عشرةَ مرة، ولكنها لا تأتي مُنَكَّرةً غيرَ مضافةٍ إلى اسمٍ ظاهرٍ أو مضمرٍ[2] في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة البقرة، مما يجعلها آصرة لغوية متفردة تربط بين القصتين الفريدتين، وتجمع بين التجربتين الفذتين للشخصيتين العظيمتين.

وفي سورة البقرة أيضًا، في قصة آدم نفسها، جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33]. ثم في قصة أخرى في نفس السورة، قصة البقرة، جاء قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72]. لا تقع هاتان الآيتان في قصتين مختلفتين فحسب، وإنما تقعان كذلك في زمانين مختلفين. فَبَيْنَ وقوع القصة الأولى في الملإ الأعلى عند خلق آدم واستخلافه في الأرض، وبين قصة البقرة التي حدثت مع بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام آمادٌ من الزمان لا يعلم مقدارها إلا الله. ومع هذه المسافة الزمنية الهائلة، يجمع النظم القرآني بينهما بآصرة لغوية لا مثيل لها في القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. ذلك لأن الله الذي يعلم ما كان الملائكة يكتمون في السماء، يعلم ما كان الناس يكتمون

2 أما في الآيات الأخرى فتأتي دائمًا مضافة إلى اسمٍ ظاهر أو مضمر كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 34]، وقوله تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: 115].

في الأرض في قصة ذبح البقرة، فلا زمان يحجب علمه ولا مكان. وهذا يتسق مع قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ويأتي تعبير ﴿مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ متفردًا بلا نظير رغم شيوع الكلمات التي يتألف منه في القرآن، إذْ إنَّ عبارة «ما كُنْتُمْ» تتكرر في القرآن ستين مرة، ومادة «كَتَمَ» إحدى وعشرين مرة، ومنها عشر مرات في البقرة وحدها.

* * *

وفي سورة الأعراف، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]. هاتان الآيتان تقعان في قصتين مختلفتين وموقعين متباعدين. فالأولى جزء من الحوار الذي دار في الملإ الأعلى بين الله سبحانه وبين إبليس لعنه الله. والثانية جزء من الحوار الذي كان – بعد الحوار الأول بمدةٍ لا يعلم قدرها إلا الله – بين شعيب وقومه الذين كذَّبوه. ففي الحوار الأول يتوعد إبليس أنْ يقطع الطريق على الناس ليُضِلَّهم عن الهُدَى ويصُدَّهم عن الحق. فيختار لفعله هذا صورةً حسيَّةً تجسِّم كفاحَهُ المستمرَّ في إضلال الناس، صورةً فيها التربص بالعدو، وفيها الرصد لكل حركة، وفيها التيقظ لكل خطر، فِعْلَ قُطَّاعِ الطرق [3]، ويقول: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وهذا التعبير المصوِّر لا يجري على لسان إبليس في القرآن كله إلا في هذه الآية.

وفي الحوار الثاني، يستعير شعيب عليه السلام التعبيرَ نفْسَهُ فيستعمله – بشيء من التعديل يلائم السياق الجديد – لوصف قومه الذين اتبعوا طريق الشيطان، ووقفوا في وجه دعوته يصدون عن سبيل الله من آمن به، ويَبْغُونها عِوجًا، ويقول لهم: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾. ولا يجري هذا التعبير على لسان شعيب في القرآن كله إلا في هذه الآية. أما الذي يجعل هذا التعبير متفردًا من الناحية اللغوية، فإنَّ مادة «قعد» التي تتكرر في القرآن إحدى وثلاثين مرة بصِيَغِها المختلفة لا تجتمع بكلمة «صراط» التي تتكرر خمسًا وأربعين مرةً في آية واحدة في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة الأعراف. بمِثْلِ هذا الإبداع المتفرد العجيب في تصوير الأغراض القرآنية المختلفة تتكرر حلقات القصة الواحدة في سُوَرٍ شتى. ولمِثْلِ هذا كان التكرارُ مدارَ الإعجاز في القرآن.

وفي سورة الأعراف أيضًا، من قصة آدم نفسها، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149]. هاتان الآيتان تقعان في موقعين متباعدين في السورة، وزمانين مختلفين في التاريخ، وترسمان مشهدين متشابهين ولكن في قصتين مختلفتين.

---

3 يؤيد هذا ما جاء بعد هذه الآية على لسان إبليس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

فالآية الأولى ترسم مشهد التوبة والإنابة في الملأ الأعلى، توبة آدم وزوجه عن ذنبهما وإنابتهما إلى ربهما. فهما يناديان ربهما للإقرار بذنبهما، عسى أن يغفر لهما ويرحمهما حتى لا يكونا من الخاسرين. وهذا المشهد هو نفسه الذي مرَّ بنا في سورة البقرة من قبلُ حين تلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه، ولكنه يُعبَّر عنه هنا بلغة السورة. والآية الثانية ترسم مشهدًا آخر مشابهًا، مشهد توبة بني إسرائيل بعد ما اتخذوا العجل من بعد موسى وضلوا عن السبيل، وطلبهم الرحمة والغفران من ربهم حتى لا يكونوا من الخاسرين.

ومع هذا التلاقي الواضح في الغرض بين المشهدين، ثمةَ تلاقٍ آخرُ واضحٌ في اللغة. فهناك تطابق في العبارة الختامية للآيتين في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهي عبارة لا تظهر في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين على كثرة شيوع الكلمات التي تتألف منها. وهناك تطابق شبه تامٍّ بين كلمات الآيتين التي تَسْبِقُ هذه العبارة الختامية. فكلتا الآيتين تشتمل على طلب الرحمة والمغفرة، بتقديم المغفرة في الآية الأولى، وتقديم الرحمة في الآية الثانية. وكلتاهما تشتمل على كلمة «ربنا» ولكن بصيغة النداء ﴿رَبَّنَا﴾ في الآية الأولى، وبصيغة الغَيْبَة ﴿رَبُّنَا﴾ في الآية الثانية. ويترتَّب على اختلاف هاتين الصيغتين اختلافٌ في صيغة الخطاب في الآيتين. ففي الآية الأولى يُسبق الفعل المضارع بتاء الخطاب ﴿تَغْفِرْ لَنَا﴾، و﴿وَتَرْحَمْنَا﴾، وفي الآية الثانية يُسبق بياء الغَيْبة ﴿يَغْفِرْ لَنَا﴾، و﴿وَيَرْحَمْنَا﴾.

ولكننا نستطيع أن نزيل هذا الاختلاف بالرجوع إلى القراءات السبع المشهورة التي اختارها أبو بكر بن مجاهد في القرن الرابع الهجري، ونستخلص منها القراءة الصحيحة، كما استخلص ابنُ مجاهد نفسُه تلك القراءاتِ من بين قراءات كثيرة كانت مشهورة في عصره، إلا أنَّ عُمدتنا في هذا الاستخلاص هو النص القرآني نفسه، لا شهرة القراءة. فقد اتفق القرَّاء السبعة على قراءة الآية الأولى بتاء الخطاب إلا أنهم اختلفوا في قراءة الآية الثانية بياء الغَيْبة. قرأها ابنُ كثير، ونافعٌ، وأبو عمرو، وابنُ عامر، وعاصمٌ بالياء: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وبضمِّ «ربُّنا». وقرأها حمزةُ والكسائيُّ بالتاء: ﴿لَئِن لَّمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا﴾، وبنصْبِ «ربَّنا».[4] إنَّ قراءةَ هذَيْنِ الأخيرَيْنِ هي الصحيحة التي تنفي غيرها لأنها تتطابق مع قراءة الآية الأولى التي أجمع عليها القراء السبعة، ولأنها تتسق مع المعهود في النظم القرآني من تحقيق التطابق المتفرد في مثل هذا السياق. ومما يؤيد ويؤكد مثل هذا التطابق المتفرد في هذا السياق أنَّ الفعلين «غفر» و«رحم» لا يأتيانِ مسبوقَيْن بأداة الجزم «لَمْ» في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين.

* * *

وفي سورة الحجْر، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجْر: 39]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحِجْر: 16-17]. هاتان الآيتان تعرضان صورتين متقابلتين: صورةً في الأرض وصورةً في السماء. ففي

4 أبو بكر بن مجاهد، **كتاب السبعة**، 294

الصورة التي في الأرض، يتوعد إبليس – لعنه الله – أن يزيِّن الباطل القبيح لبني آدم، ويَكْسُوَهُ بريقًا خلَّابًا يُجَمِّلُه في أعينهم. وقد مرَّ بنا هذا المعنى نفسه في سورة الأعراف. فهناك كان يتوعد إبليس أن يقعد للناس صراطَ الله المستقيم يصدهم عن الحق، ويقطع عليهم طريق الهدى، وكان يستعمل لغة تلك السورة، كما أسلفنا. أما هنا في هذه السورة فيتخذ تزيين الباطل أداةً جديدةً للإغواء تماشيًا كذلك مع معجم السورة. غير أنه يُبرز هنا عنصرًا جديدًا وهو أنه يحدد ساحة معركته مع بني آدم فيقول: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. فالأرض، لا السماء، هي مجال عمله، فإليها يصرف اهتمامهم، وبها يشغل حياتهم. أما السماء، فما له إليها من سبيل، كما سنرى بعد قليل.

وفي الصورة التي في السماء، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾. فهي مزدانةٌ بزينةٍ حقيقيةٍ لا خداع فيها ولا تضليل، ومتجددةٍ لا تَبْلَى جِدَّتُها ولا يَخْفتُ بريقُها على مرِّ الأيام وكرِّ الدهور، ومنصوبةٍ دائمًا متاعًا للناظرين، ومنارًا للمهتدين. وهي مع ذلك محفوظةٌ ﴿مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾، فلا سبيل إليها لإبليس، ولذلك اختار الأرض لتكون مسرحًا لعملياته الشريرة الآثمة، وتزيينه الزائف الخادع الذي يورد الناس موارد الرَّدَى والهلاك. ومن هنا ندرك لماذا غيَّر إبليس وسيلته في الإغواء ومجاله الذي يمارس فيه ذلك الإغواء (وإن كانت وسائله كلها ومجالاته تتكامل). فهو تغيير ينسجم مع لغة السورة وأهدافها. أمّا التلاحم اللغوي المتفرد بين الصورتين فيتحقق في أنه لا ذكرَ لتزيين الله للسماء وحفظها يقابله ذكرٌ للتزيين في الأرض من إبليس وجنوده في القرآن كله إلا في سورتين، هذه السورة، سورة الحِجْر [16 و39]، وسورة فُصِّلت [12 و25].[5] وفي السورتين يُستعمل التزيين لتحقيق التقابل في المعنى وفي اللفظ. ومع أنَّ مادة «زان» تتكرر في القرآن بصيغها المختلفة ستًّا وأربعين مرة في القرآن، فإن هذا التقابل لا يقع إلا في هاتين السورتين.

* * *

وفي سورة ص، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82]. وقولُه تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: 2]. في هاتين الآيتين نرى مشهدين متشابهين. ففي المشهد الأول نجد أنفسنا مرةً أخرى مع إبليس في توعده لإغواء بني آدم. ولكنه في هذه المرة، على خلاف المرات التي سبقت، يصطنع أسلوبًا جديدًا للتعبير عن تصميمه على الإغواء. فهو يُقْسِمُ بعزة الله – قَسَمًا آثمًا – ليُغْوِيَنَّ بني آدم أجمعين، إلا عبادَ الله منهم المخلصين. فهو قَسَمٌ آثم لأنه يُقْسِمُ بعزة الله للقيام بفعلٍ أثيم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فالذي يُقْسم بعزة الله يعمل بمقتضى تلك العزة، ولا يعمل بما يناقضها ويشاقُّها. وفي المشهد الثاني، نجد الذين كفروا من ذرية آدم، يتبعون خطوات الشيطان، فهم ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، في عزةٍ آثمةٍ مستكبرةٍ وشقاقٍ عظيم للقرآن، تمامًا كما كان قَسَمُ إبليس بعزة الله – سبحانه – آثمًا مستكبرًا مشاقًّا لأمر الله. فهما مشهدان متشابهان

---

5 وذلك في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فُصِّلت: 12]. وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فُصِّلت: 25].

متكاملان. ويكتمل تشابه المشهدين وتكاملهما بحقيقة أنَّ كلمة «العزة» التي تتكرر في القرآن إحدى عشرة مرة، لا تتكرر في السورة الواحدة في آيتين مختلفتين[6] – فضلًا عن سياقين مختلفين متباعدين كما هو الشأن في هذه السورة – إلا في هذه السورة. وهذا من النوع الرابع من أنواع التلاحم اللغوي في القرآن الذي أشرنا إليه في بداية هذا الفصل. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا التلاحم كذلك يتحقق بين آيتين مختلفتين في فاصلتهما، أي بين ﴿شِقَاقٍ﴾ وبين ﴿أَجْمَعِينَ﴾، مما يُبْطِلُ ما توهمه ثيودور نولدكه (ت: 1930م)، إمام المستشرقين في الدراسات القرآنية المعاصرة، بأنَّ أول السورة وآخرها لم يكونا ينتميان في الأصل إلى سورة واحدة.[7]

* * *

وفي سورة الإسراء، جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]. في هذه الحلقة من قصة آدم نرى إبليس يتوعد ذرية آدم بأسلوب جديد لا يرد في أي سورة أخرى، بأسلوب فيه الحسد والحقد والاحتقار. إنّ قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ لَيَنْضَحُ بما في نفسه من الحسد الشديد لآدم، وحقده عليه، واحتقاره له. فعبارة ﴿هَٰذَا الَّذِي﴾ مشحونةٌ بالازدراء لهذا المخلوق من الطين والذي يقول عنه إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61]، «يَذْكُرُ الطينَ ويغفل نفخةَ الله في هذا الطين».[8] فهو يحسده لأن الله كرَّمُه عليه، مع أنه مخلوق من الطين، وأمره بالسجود له. فكان عصيانه لأمر الله سببًا في طرده ولعنه. فهو لذلك مصمم على الانتقام من ذريته، وقد أخره الله إلى يوم القيامة، باحتناكهم واقتيادهم بالخطام كما تُقاد الدواب، إلاّ من عصم الله منهم، وذلك في مقابل تكريم الله لهم.

يُبْرِزُ السياق القرآني هذا الانتقام، انتقام إبليس من ذرية آدم باحتناكهم وإذلالهم، في مقابل تكريم الله لبني آدم، ذلك التكريم الذي تنص عليه سورة الإسراء نصًّا: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]. إن سورة الإسراء هي السورة الوحيدة التي تنص على هذا التكريم باستعمال ذات المفردة التي استعملها إبليس وهي الفعل «كَرَّمَ» المضعَّف الذي لا يَظْهَرُ في القرآن إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة الإسراء، ولا يَرِدُ على لسان إبليس إلا في هذه السورة. ويأتي هذا الورود الحصري لهذا الفعل بصيغته المضعَّفة في هذه السورة على الرغم من أن الجذر الثلاثي لمادة «كرم» يتكرر في القرآن سبعًا وأربعين مرةً بصِيَغٍ مختلفة.[9] وبهذا يتحقق التلاحم الفريد بين قصة آدم وسورتها في اللغة وفي الهدف.

---

6 تتكرّر كلمة «العزة» مرتين في آية واحدة في موضعين في القرآن، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139]. وفي قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10].

7 Theodor Nöldeke et al., *The History of the Qur'ān*, ed. and trans. Wolfgang Behn (Leiden: Global Oriental, Hotei Publishing, 2013), 107.

8 سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2238. سبق ذكره.

9 الموضع الوحيد الذي يأتي فيه اسم المفعول من الصيغة المضعَّفة لهذا الفعل في القرآن هو قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: 13].

* * *

وفي سورة الكهف، جاء قولُه تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ [الكهف: 50]. هذه الآية هي الإشارة الوحيدة إلى قصة آدم في سورة الكهف، وهي مع تفردها هذا وقصرها، جاءت متلاحمة مع السورة التي وردت فيها. وقد يتوقع الإنسان، بالنظر إلى قصر الإشارة، ألا يتحقق التلاحم بينها وبين بقية أجزاء السورة. ففي الشطر الأول من الآية تذكيرٌ للناس بما كان بين أبيهم آدم وبين إبليس من عداء قديم بأسلوب الحكاية. وفي الشطر الثاني تعجيبٌ من أمرهم، وتقريع لهم وتوبيخ، أن يتخذوا إبليسَ وذريتَهُ أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم، ولكن بأسلوب الاستفهام الاستنكاري: ﴿**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**﴾.

وتتلاحم هذه الآية مع آية أخرى في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا**﴾ [الكهف: 102]. فالتلاحم المعنوي واضحٌ في الاستفهام الذي ينكر على الذين كفروا أن يتخذوا عبادَ الله من دونه أولياء. أما التلاحم اللغوي فيتمثل في عبارتين فريدتين لا تقعان في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين. ففي الآية الأولى، جاء قوله تعالى: ﴿**أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي**﴾، وفي الآية الثانية، جاء قوله تعالى: ﴿**مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ**﴾. فالعبارتان متطابقتان في كلماتهما الثلاث، ولا فرق بينهما إلا في الترتيب. وهذه الكلمات الثلاث، رغم شيوعها في القرآن، لا تجتمع في آية واحدة إلا في هذَيْن الموضعين من سورة الكهف. فكلمة «أولياء» تتكرر في القرآن خمسًا وثلاثين مرة، وعبارة «مِنْ دون» مائةً وثلاثًا وثلاثين مرة. وأما عبارة «من دوني» (بإضافة «دون» إلى ياء المتكلم) فلا تقع إلا ثلاث مرات. تقع مرتين في سورة الكهف [50 و 102]، وثالثةً في سورة الإسراء [2]، ولكنها لا تجتمع بكلمة «أولياء» إلا في آيتَي الكهف، وهذا الذي يجعلها آصرةً لغويةً متفردة.

* * *

وفي سورة طه، جاء قولُه تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه: 115]. وقولُهُ تعالى: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ**﴾ [طه: 88]. تقع هاتان الآيتان في قصتين مختلفتين: الأولى تُفتتح بها قصة آدم في سورة طه، وتأتي بعد الانتهاء من قصة موسى في السورة[10] والتعقيب عليها. والثانية تأتي في سياق قصة موسى كما هو واضح. وبين الآيتين تلاحم لغوي فريد على بُعد ما بينهما من المسافة: أولًا عبارة ﴿**فَنَسِيَ**﴾، بصيغتها هذه لا ترد في القرآن كله إلا في هذَيْن الموضعين من سورة طه. ومع أن مادة «نسي» تتردد في القرآن بصيغٍ مختلفةٍ خمسًا وأربعين مرة، إلا أنها لا تأتي بصيغة

10 وهذه أطول حلقة لهذه القصة في القرآن بعد الحلقة التي في الأعراف، وتستغرق ثلثي مساحة السورة [طه: 9-98]، وتأتي كذلك قصة آدم بعد الانتهاء من التعقيب على قصة موسى [طه: 99-114].

«فَنَسِيَ»، صيغة الفعل الماضي، مسبوقةً بالفاء وغيرَ متصلةٍ بضميرٍ ظاهرٍ إلا في هاتين القصتين المختلفتين في سورة طه. وثانيًا لا تجتمع مادة «نسي» بعبارة ﴿لَهُ﴾ في آية واحدة في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين، مما يقطع بأن هاتين الآيتين مَصُوغَتَانِ هذه الصياغة الخاصة لتكونا في سورة واحدة، ولتكونا آصرة فريدة تربط بين قصة موسى وقصة آدم عليهما السلام في هذه السورة. وفوق ذلك، فإن عبارة ﴿فَنَسِيَ﴾ جاءت في نهاية الآية في المرة الأولى [طه: 88]، وجاءت في وسط الآية في المرة الثانية [طه: 115]، مما يدل على أنه جيء بها لاقتضاء السياق لها، ولم يُؤتَ بها كحِلْيةٍ إيقاعيةٍ تُخْتَمُ بها الفاصلة في المرتين.

نستطيع أن نستعين بهذا التلاحم اللغوي المتفرد بين الآيتين لفهم معناهما الذي احتار فيه المفسرون. ففي آية نسيان آدم [طه: 115] يَذْكُرُ اللهُ – سبحانه – فيها عهدَهُ إلى آدم من قبل، وهو ألا يَقْرَبَ الشجرة المحظورة في الجنة، ونسيانَ آدم لذلك العهد، وعدمَ ثباته عليه بعزم وتصميم: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. فالآية تشير إلى ما حدث «من قبلُ» في السورة من عهدٍ ثم نسيان. ولقد احتار المفسرون في هذا الذي حدث «من قبلُ» لأنّ هذه العبارة لا بد أن يكون لها شيءٌ سابقٌ تشير إليه في السورة. فالطبري يرى أن الله جلَّ ثناؤه عَنَى بقوله ﴿من قَبْلُ﴾ هؤلاء الذين أخبر أنه صرَّف لهم الوعيد في هذا القرآن[11] لأنهم تركوا طاعة الله واتبعوا أمر عدوهم إبليس كما خالف أبوهمُ آدمُ من قبلُ أمْرَ ربه فأطاع الشيطان. والزمخشري يتابعه في هذا الرأي. أما ابن عطية فيرى أنّ هذا التأويل ضعيف، وليس بشيء، لأنه يجعل آدم مثالًا للكفار الجاحدين، وفي ذلك غضٌّ من شأنه، وآدمُ إنما عَصَى بتأويل. ويرى أنَّ الآية تبتدئ قصةً لا تتعلق بما قبلها أو أنها تَعْهَدُ إلى النبي ﷺ ألا يَعْجَلَ بالقرآن[12]، فتَضْرِبُ له مثلًا بآدم الذي عُهد إليه من قبل فَنَسِي.[13]

إلاّ أنّ الآية التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: 88] يمكن أن تلقي الضوء على النسيان الذي حدث ﴿من قَبْلُ﴾ في السورة. هذه الآية تتحدث عن السامريِّ الذي أخرج لبني إسرائيل عجلًا اتخذوه إلهًا من دون الله، وتنتهي بقوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾، وهي ذاتُ العبارة التي وردت في الآية التي فيها ذكر نسيان آدم. فالذي أشكل على المفسرين هو تعيين الشخص الذي وقع منه فعل النسيان في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ في قصة موسى. هل السامريُّ هو الذي نَسِيَ الإيمان الذي تركه عليه موسى فصنع العجل، وبهذا تكون العبارةُ وصفًا من الله له؟ أم هل موسى هو الذي نَسِيَ ربَّهُ وذهب يطلبه في الطور، وبهذا تكون العبارةُ إساءةً من بني إسرائيل إلى نبيهم، واتهامًا له بأنه نسي إلهه؟ فقد تردّد المفسرون بين هذَيْنِ الرأيين.

---

11 فالطبري يشير بهذا إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]. وهي الآية التي جاءت قبل بداية قصة آدم في السورة بآية واحدة.

12 يشير ابن عطية بهذا إلى قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]. وهي الآية التي جاءت قبل بداية قصة آدم مباشرة.

13 ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز**، 1269. سبق ذكره.

فالراجح أنّ الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب، وأن عبارة ﴿فَنَسِيَ﴾ وصفٌ من الله للسامري. ذلك أننا نجد في كلٍّ من قصة موسى وقصة آدم قرائن أخرى من التلاحم تدل على أنَّ السامريَّ هو المنعوت بالنسيان. جاء في قصة آدم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: 119]. هذا الخطاب موجَّهٌ من الله إلى آدم، يعدد له فيه أسباب الحياة الكريمة المضمونة له ما دام في الجنة، مُلمِّحًا له في الوقت نفسه إلى ما يناله من أصناف الشقاء (بما نفى عنه من الجوع والعري) إذا ما أخرجه الشيطان منها. وكان ذلك تحذيرًا له قبل وسوسة إبليس له وإغوائه إياه. وجاء في قصة موسى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97]. والخطاب هنا موجَّهٌ من موسى عليه السلام إلى السامريِّ، وفيه بيانٌ لِما كتب الله على السامري من حياة البؤس والشقاء التي يحياها في الحياة الدنيا، وما ينتظره من العقاب الأليم في الآخرة، وذلك في مقابل حياة النعيم والسعادة التي كتب الله لآدم في الجنة ما دام فيها. فَبَيْنَ الخطابَيْنِ تلاقٍ معنويٌّ جليّ.

أما التلاقي اللغوي بينهما فيتحقق في أنَّ عبارة «إنَّ لَكَ» من العبارات النادرة، ولا تقع في القرآن كله إلا في أربع آيات، ولا تقع مرتين في سورة واحدة إلا في سورة طه في هاتين الآيتين [طه: 97، 119]. ثم تقع مرةً واحدةً في كلٍّ من القلم والمزمل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: 3]، وقوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: 7]. ولكن مع ورود هذه العبارة في هاتين الآيتين، فإن الآيتين اللتين في سورة طه تنفردان بخاصيتين لغويتين ليستا في آيتَي القلم والمزمل. فالخاصية الأولى أنَّ اسم «إنَّ» في آيَتَيْ طه مصدرٌ مؤوَّلٌ وليس مصدرًا صريحًا: فاسم «إنَّ» في الآية الأولى [طه: 97] هو «أنْ تَقُولَ» في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ﴾، واسمُها في الآية الثانية [طه: 119] هو «أَلَّا تَجُوعَ» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾، بينما اسمها في آية القلم هو ﴿لَأَجْرًا﴾ وفي آية المزمل هو ﴿سَبْحًا﴾، وكلاهما مصدر صريح. بل إن اسم «إنَّ» في كل المواضع التي تكون فيها متبوعةً بالجار والمجرور «لكَ» للمفرد أو «لكُمْ» للجمع – وهي خمسة مواضع عدا المواضع الأربعة التي ذكرناها[14] – مصدر صريح ولا يأتي مؤوَّلًا إلا في آيَتَيْ طه. أما الخاصية الثانية التي تنفرد بها آيتا طه فهي «لا» النافية التي تقع فيهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا مِسَاسَ﴾، ولا تقع في آيتي القلم والمزمل. إنَّ هذا التناظر المتفرد بين قصة آدم وقصة السامريِّ في السبك اللغوي، والذي لا مثيل له في القرآن، يقطع بأنّ السامريَّ هو الذي وقع منه النسيان.

* * *

وفي سورة طه أيضًا، جاء قولُه تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40]. هاتان الآيتان تعرضان مشهدين متقابلين من قصتين مختلفتين،

14 لا ترد «إنَّ» متبوعة بالجار والمجرور «لكَ» للمفرد أو «لكُم» للجمع إلا في تسعة مواضع في القرآن مع المواضع الأربعة التي ذكرناها. والمواضع الخمسة الأخرى هي [البقرة: 61]، و[النحل: 66]، و[المؤمنون: 21]، و[القلم: 38، 39].

وموقعين متباعدين. فالآية الأولى جزء من قصة آدم، وفيها يتسلل الشيطان إلى آدم من أضعف نقطةٍ فيه، نقطة الخوف من الموت والفناء، ويزين له الخلود والبقاء. يناديه باسمه ﴿يَا آدَمُ﴾ فِعْلَ الصديق الحميم والناصح الأمين، حتى يثق به فيستنيم له. ثم يعرض عليه خطته في الإغواء بصيغة السؤال لاستثارة فضوله ولتشويقه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ؟﴾ وتنجح خطة إبليس، ويقع آدم في مصيدة الشيطان، عدوه الذي ظهر له في صورة دليلٍ يهديه إلى سر الخلود.

أما الآية الثانية فجزء من قصة موسى، وفيها تنتهز أخت موسى فرصة البحث عن مرضع لأخيها الطفل الذي أبى أن يقبل ثدي المراضع[15] بعد ما تبناه فرعون وزوجه، تنتهز هذه الفرصة لتَعْرِض عليهم مَنْ يُرْضِعُه. تعرض عليهم بصيغة مَنْ يقترح حلًّا لمشكلة يلهث القوم في حلها، لا بصيغة من يفرض عليهم ذلك الحل، وذلك لكي يطمئنوا إليها: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ؟﴾. فتنجح خطتها في إقناع القوم، وتدلهم على أمها، فيلتقم الطفل ثدي أمه، ويعود إلى الأم طفلها الحبيب وتَقَرُّ به عينها. وكانت قد قذفته في اليم، ونجا من الموت المحقق بتدبير الله، والآن يرجع إليها كذلك بتدبير الله.

وهكذا يتقابل المشهدان هذا التقابل العجيب. فإبليس ينجح في استدراج آدم لإغوائه وإخراجه من الجنة إلى دار الشقاء، وآدم لا يشعر أن هذا عدوٌّ جاءه في ثوبِ صديق. وأخت موسى تنجح في استدراج القوم وإقناعهم برد الطفل إلى أمه وهم لا يشعرون أنهم يربُّون طفلًا ستكون نهاية ملك فرعون على يده. ففي الحالتين استعمالٌ للحيلة: للشر في الأولى، وللخير في الثانية. هذا من حيث التقابل في الهدف.

أما من حيث التلاقي في الوسيلة اللفظية، فنجد أنّ إبليس وأخت موسى يستعملان التعبير ذاته. فهو يقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ؟﴾، وهي تقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ؟﴾. هذا التعبير نادر جدًّا في القرآن والندرة من علامات القوة في الربط بين المقاطع كما نعلم. فمادة «دَلَلَ» لا تقع في القرآن كله إلا ثمانيَ مرات. ولا تأتي مسبوقةً بأداة الاستفهام «هَلْ» إلا خمس مرات.[16] ولا تقع مرتين في سورةٍ واحدةٍ إلا في سورة طه. وهذا وحده كافٍ ليجعل هذا التركيب آصرة لغوية قوية تربط بين قصة آدم وقصة موسى في سورة طه.

إلا أنّ الآيتين اللتين في طه تنفردان بوجود عنصر لغوي لا يوجد في غيرهما من الآيات الثلاث الأخرى التي يقع فيها الفعل «دَلَّ» مسبوقًا بأداة الاستفهام «هَلْ». وهذا العنصر اللغوي هو «لا» النافية في قوله تعالى:

---

15 يقول الله تعالى في تحريم المراضع على موسى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: 12].

16 مرةً في القصص [القصص: 12]، انظر: الهامش السابق. ومرة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10]، ومرة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7]، ثم مرتين في طه [طه: 40 و120]. وقد يسأل سائل هنا: كيف ترتبط عبارة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ التي في سورة الصف، وعبارة ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ التي في سورة سبأ بسورتيهما؟ والحقيقة أنهما ترتبطان بسورتيهما بطريقة عجيبة. أما التي في الصف فترتبط بسورتها بآصرة خاصةٍ ليست في غير هذه السورة وهي أنها تأتي بعد عبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي تتكرر في القرآن تسعًا وثمانين مرةً والتي لا تأتي متبوعةً بالاستفهام إلا في هذه السورة: الاستفهام الأول في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ والاستفهام الثاني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2]. وأما التي في سبأ فترتبط بسورتها بكلمة فريدة لا تقع في القرآن كله مرتين إلا فيها وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: 7] في الآية التي مرت بنا، وقوله تعالى في نفس السورة: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: 19].

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]، وقوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40]. وقد سبق أن لاحظنا مثل هذا الحضور الحصري لهذه الأداة، «لا» النافية، في الآيتين السابقتين من سورة طه: [طه: 97 و119]. وهذا من عجائب التنسيق الدقيق في النظم القرآني.

نكتفي بهذا القدر من قصة آدم ولم نستقص فيها كل ما في حلقاتها من عناصر التلاحم اللغوي التي تربطها بسورها لدلالة ما استعرضناه من الأمثلة على ما بقي منها. والآن ننتقل إلى قصة موسى عليه السلام.

* * *

قصة موسى عليه السلام

قصة موسى عليه السلام أكثر القصص تكرارًا في القرآن، كما أشرنا من قبل. فقد تكررت حلقات منها طويلة ومتوسطة وقصيرة أو إشارات سريعة إليها في أربع وأربعين وسورة، أي في أكثر من ثلث القرآن، وهذا حضور عالٍ جدًّا لا يوازيه أيُّ حضورٍ آخر للقصص في القرآن. ومن هذه الحلقات والإشارات ما ذُكر فيها اسمُ موسى ومنها ما لم يُذكر فيها اسمُه. فقد ذُكر اسمه مائةً وإحدى وثلاثين مرة في أربعٍ وثلاثين سورة[17] وهذه السور هي التي تضم الحلقات الطويلة والمتوسطة والقصيرة وفيها بعض الإشارات السريعة. ولم يُذكر اسمه في عشر سور[18]، وإنما ذكر فيها اسم فرعون، وهي السور التي تضم أكثر الإشارات السريعة باستثناء سورة الدخان التي تعرض فيها القصة بشيء من التفصيل [الدخان: 17-33]، وفيها يُشار إلى موسى بأنه ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: 17] وبأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: 18].

تتناول هذه الحلقات المكررة جوانب مختلفة من حياة موسى الشخصية وحياته الرسالية. تتناول مولده وطفولته وشبابه وزواجه، وإرساله إلى فرعون ومواجهته له ولسحرته، وتحريره لبني إسرائيل وإخراجهم من مصر، وميقاته مع ربه واصطفاء الله له برسالاته وبكلامه. فالقاعدة التي يسير عليها القرآن في تكرار ما يَعْرِضُ من حلقات القصص، في قصة موسى وفي غيرها، هي أنّه يعرض من أحداث القصة ومشاهدها ما يتلاءم مع السورة في اتجاهها المعنوي وبنائها اللغوي. وجريًا على هذه القاعدة، ذُكِرَتْ طفولة موسى في سورة طه كما رأينا. فقد جاء فيها على لسان أخت موسى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه: 40]، وعلى لسان إبليس اللعين: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]. وقد شرحنا بالتفصيل ما بين الآيتين من تلاحم في اللفظ، وتقابل في المعنى. وذُكرت كذلك قصة السامري في السورة نفسها. فجاء فيها قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ

17 هذه السور هي البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وهود، وإبراهيم، والإسراء، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والفرقان، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والسجدة، والأحزاب، والصافات، وغافر، وفُصِّلت، والشورى، والزخرف، والأحقاف، والذاريات، والنجم، والصف، والنازعات، والأعلى.

18 هذه السور هي الأنفال، وص، والدخان، وق، والقمر، والتحريم، والحاقة، والمطففين، والبروج، والفجر.

﴿وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: 88]. وجاء في قصة آدم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]. وقد فصلنا القول كذلك في العلاقة بين القصتين. وهكذا كلما ذُكرت مرحلة من مراحل حياة موسى، ذكر معها في السورة ما يقابلها من العناصر اللغوية التي تتناظر معها وتلتحم بها.

ومن هنا لم يكن من الصواب ما فعله بعض الدارسين من انتزاع حلقات قصة موسى من السور التي وردت فيها وترتيبها ترتيبًا زمنيًّا يبدأ من مولد البطل وينتهي بخروج بني إسرائيل من مصر، على طريقة كتَّاب الروايات. وهذه الطريقة - بصرف النظر عما وراءها من نية حسنة وغاية نبيلة - تخالف نهج القرآن، بل تستدرك عليه، وتَخْلِطُ الآيات التي وردت في سور مختلفة خلطًا عجيبًا كي تَنْسُجَ منها روايةً متماسكة. وتأبى الرواية أن تتماسك لأنها مؤلَّفَةٌ من نصوصٍ متناثرةٍ لم تُصَمَّمْ في الأصل لتكون في سياقٍ واحد. وَعُذْرُ أصحاب هذه الطريقة أنهم لا يدركون أنَّ نَزْعَ حلقةٍ معينةٍ من بيئتها التي وردت فيها، ووضعَها متجاورةً مع حلقاتٍ أخرى وردت في بيئاتٍ أخرى، إنما يشوِّهُ الغرضَ الذي من أجله سيقت الحلقة في بيئتها الأصلية، ويبترها من محيطها الذي تتكامل معه، وتحقق فيه الغرض العامَّ للسورة.[19] ولقد يسكب هؤلاء حِبْرًا كثيرًا لتفسير اختلاف العبارات بين الحلقات المختلفة، المنتزعة من بيئاتٍ لغويةٍ شتى، ثم لا يكادون يهتدون إلى تفسيرٍ مقنعٍ لأنهم إنما يقارنون بين عباراتٍ صُمِّمَتْ في الأصل لتكون متباينةً حتى تلائم السياقات التي وردت فيها. ولو أدركوا أن لغة الحلقة إنما ينبغي أن تقارن بلغة السورة التي وردت فيها، لا بلغة سورة أخرى، لاستراحوا من هذا العناء.

ولما لم يكن غرضنا في هذا البحث هو تحليلَ حلقات قصة موسى - كما أسلفنا - فإننا سنستعرض أمثلةً مختارةً تدل على ارتباط تلك الحلقات بالسور التي وردت فيها، دون أن نحاول اتباعَ ترتيبٍ زمنيٍّ معينٍ في سردها. فلنمض على بركة الله.

* * *

في سورة البقرة، جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]. وقولُه تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]. تشير هاتان الآيتان إلى حادثتين منفصلتين في قصة موسى. فالأولى تشير إلى استسقاء موسى لقومه وقد أصابهم العطش في التيه، والثانية تشير إلى قصة البقرة التي أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوها للكشف عن قاتل النفس الذي اختلفوا في تعيينه. ويجمع السياق القرآني بين هاتين الحادثتين برباطَيْن، لغويٍّ ومعنوي. أما الرباط اللغوي ففي التركيب الذي في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾. وهذان الموضعان هما الوحيدان في القرآن اللذان نرى فيهما هذا التركيب المكون من الفعل الماضي «قلنا» وفعل الأمر

19 انظر على سبيل المثال: السيد محمد باقر الحكيم، **القصص القرآني** (النجف الأشرف: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، طبعة منقحة 2008)، 223-261. وانظر: الدكتور فضل حسن عباس، **القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته**، 222-389. وانظر: الدكتور صلاح الخالدي، **القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث** (دمشق: دار القلم، 1998)، 2: 275-511، و3: 5-359

«اضرب»، على الرغم من أن عبارة «قلنا» ترد في القرآن في ستٍّ وعشرين آية، وكلمة «ضرب» في أربع وخمسين آية. وأما الرباط المعنوي، فإنّ الأمر بالضرب في الحالتين يَنْتُجُ عنه أمرٌ خارق للعادة. ففي الأولى يَضْرِبُ موسى الحجرَ فينفجر منه الماء الذي هو أساس الحياة. وفي الثانية يُضرب القتيلُ ببعض أجزاء البقرة فَتَدِبُّ فيه الحياة. وهكذا تلتحم القصتان هذا الالتحام المدهش في المعنى وفي المبنى.

ويظهر القصد الكامن وراء هذا الالتحام بصورة أجلى حين نعلم أن الاستسقاء في القرآن لم يُذكر إلا مرتين. مرةً في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف: 160]. وأخرى في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [البقرة: 60]. فالأولى نزلت بمكة والثانية بالمدينة، وبينهما شَبَهٌ في اللفظ عظيم. ولما أراد النظم القرآني أن يُفَرِّقَ بين الآيتين بعلامة تميز إحداهما عن الأخرى، خالف بينهما في السبك. قال في الأعراف: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، وقال في البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، بعد ما مهَّد لكُلٍّ بما يناسبه من التركيب. وقد رأينا كيف التحمت حادثة ضرب الحجر بحادثة ضرب القتيل في اللفظ وفي الغرض. وبهذا الالتحام المتفرد تميزت آية سورة البقرة عن آية الأعراف، وامتنع نقلها إلى الأعراف.

ثم لما أراد النظم القرآني أن تنفرد آية الأعراف بسبكٍ لغويٍّ يمنع نقلَها إلى البقرة، صدَّرَها بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]. ثم صدَّر آيةً أخرى من نفس السورة بقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]. فعبارة ﴿وَقَطَّعْنَاهُم﴾ هذه لا ترد في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من الأعراف. وبهذا يمتنع نقل آية الأعراف [الأعراف: 160] التي فيها الاستسقاء إلى سورة البقرة رغم الشبه اللفظي العظيم بينهما، وموضوعهما المشترك.

تُرى كيف استطاع إنسان كان يُملي هذه الآيات من ذاكرته أن يراعي كل هذه الدقائق المعقّدة التي تمنع أن تنتقل آيةٌ من سورة إلى أخرى في كتابٍ بحجم القرآن؟ إنه ليس من المستطاع مراعاة هذه الدقائق المعقدة حتى في عصرنا هذا الذي أصبح فيه للناس وسائل متقدمة للكتابة تستطيع إحصاء الحروف والكلمات والتراكيب، وتخزينها واستعادتها، وإعادة ترتيبها وتركيبها بيُسْرٍ لم يسبق له مثيل في التاريخ، فكيف بذلك العصر الذي لم تكن فيه إلا وسائل أولية ليس فيها كل هذه الخصائص؟ لا يبقى إلا أن يكون هذا النص من مصدرٍ مفارقٍ للإنسان، ومتعالٍ على ذاكرته البشرية.

* * *

وفي سورة الأعراف، وفيها أطول حلقة من حلقات قصة موسى في القرآن، جاء قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: 61]. وقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعـراف: 67]. وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: 104]. هذه الآيات الثلاث تقع في ثلاث قصص متفرقة في سورة الأعراف. فالأولى [الأعراف: 61] حكاية لقول نوح، والثانية [الأعراف: 67] حكاية لقول هود، والثالثة [الأعراف: 104] حكاية لقول موسى. وتجمع بينها جميعًا عبارة ﴿**رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ التي لا ترِد في القرآن كله إلا في هذه المواطن الثلاثة من الأعراف. فقد استعار العبارةَ هودٌ من أخيه نوح، وموسى من أخيه هود، على بُعد ما بينهم في الزمان والمكان. ومع أن موسى يقول في سورة الزخرف: ﴿**إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الزخرف: 46]، إلا أنه في الأعراف يختار الصيغة التي اختارها أخواه نوحٌ وهودٌ من قبل، صيغة تنكير الرسول، ليؤكد أنه واحد من رسل الله الذين سبقوه، وأنه جزء من موكب الرسالات العريق، ولتتخذ قصته في الأعراف موقعها المتفرد الذي أراد الله لها أن تكون فيه.

وإذا علمنا أن كلمة «رسول» بصيغتها هذه المفردة، منكَّرةً ومعرَّفة، تتردد في القرآن مائتين وخمس عشرة مرة، وعبارة «رب العالمين» اثنتين وأربعين مرة، أدركنا أن وراء تفرُّد تركيب ﴿**رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قصدًا في انتقاء كلماته وفي تصميم سبكه، إذْ لا يمكن أن يكون تفرُّدُ هذا التركيب، مع شيوع كلماته، وليدَ الصدفة. إنّ هذا التوحيد الدقيق في الصيغة اللغوية التي يقدم بها كلُّ سولٍ نفسَه إلى من بُعث إليهم، رغم تباعد الأزمنة بينهم والأمكنة، يَدُلُّ على تعالي القرآن على الزمان والمكان.

* * *

وفي سورة الأعراف أيضًا، جاء قولُه تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأعراف: 60]. وقولُه تعالى: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: 109]. فالآية الأولى جاءت في قصة نوح، والثانية في قصة موسى. إنّ عبارة ﴿**قَالَ الْمَلَأُ**﴾ من أهم العبارات التي تميز سرد القصص في سورة الأعراف عن غيرها من السور، إذ ترِد سبع مرات في سلسلة القصص المشترك بين نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى عليهم السلام. وهذه العبارة لا ترِد في القرآن كله، مجردة من حرف العطف، أو مسبوقةً بالواو أو الفاء، إلا عشر مرات، بينما تتكرر في هذه السورة وحدها سبع مرات[20]، مما يجعل حضورها في الأعراف كثيفًا كثافةً ظاهرةً يرقى بها إلى مستوى الأواصر اللغوية القوية التي تربط بين حلقات القصص المختلفة برباط متين.

أما سبب تكرار هذه العبارة بهذه الكثافة فيرجع إلى أن سورة الأعراف تريد أن تُبْرِزَ طبيعةَ المعركة التي يخوضها الرسل مع الملأ المستكبرين، أولي القوة والثروة، والقيادة والسيادة في المجتمع، الذين يَرَوْنَ في دعوة الرسل تهديدًا لمكانتهم، ويَرَوْنَ أنها تستهدف تجريدَهم من قوتهم وثروتهم، ونَزْعَ القيادة والسيادة عنهم،

20 [الأعراف: 60، 66، 75، 88، 90، 109، 127]. والمواضع الثلاثة الأخرى لهذه العبارة هي هود [هود: 27]، والمؤمنون [المؤمنون: 24، 33].

ومساواتَهم بالفقراء والمستضعفين. تُبْرِزُ السورةُ هذه المعركةَ من خلال اشتباك أولئك الملأ مع الرسل في الحوار، وتصديهم لهم، وردهم عليهم دعوتهم بصيغة لفظية تتكرر في السورة سبع مرات في السورة وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾.

وتنسيقًا لهذه الصورة التي تبرزها السورة، يدمج النظم القرآني قصة موسى مع قصص غيره من المرسلين على الاختلاف البيِّن الذي بين رسالته ورسالتهم. ذلك أنَّ جميع الرسل الذين بعثهم الله إلى الناس، بمن فيهم المذكورون في هذه السورة، بُعثوا إلى قومهم، ولم يُبعثوا إلى فردٍ فيهم، وكانت المواجهة دائمًا بينهم وبين الملأ من قومهم، بينهم وبين الطغيان الجماعي لأولئك الملأ. أما موسى فقد بُعث إلى فرعون بالأصالة وإلى ملئه بالتبعية. قال تعالى: ﴿**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ**﴾ [طه: 24]. وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [الأعراف: 103]. فكانت المواجهة دائمًا بينه وبين فرعون، الفرد الطاغية المتجبر، أولًا، ثم بينه وبين مَلَئِه ثانيًا.

ولما كان المرادُ هو إبرازَ دَوْرِ أولئك الملأ في هذه السورة، ركز السياق على الملأ من قوم فرعون، وأشركهم في الحوار الذي دار بين موسى وفرعون مباشرةً بلا واسطة، فجاءت الآية هكذا: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف: 109]. فعبارة ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ جاءت مطابقة لأقوال الملأ في القصص الأخرى. إنَّ هذا الإشراك المباشر لملأ فرعون في الحوار مقصودٌ قصدًا لتحقيق التلاحم بين قصة موسى وقصص غيره من المرسلين في هذه السورة بدليل أننا لا نرى مثل هذا الإشراك في سورة الشعراء التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ [الشعراء: 34]. في هذه الآية فرعون هو الذي يقول للملأ، وليس الكلام صادرًا عنهم مباشرة، مع أن الآيتين تتحدثان عن الموقف نفسه، وبينهما تداخل لفظي كبير، فضلًا عما بين الأعراف والشعراء من شَبَهٍ يبلغ حد التطابق في كثير من الآيات التي تسرد قصة موسى، وفضلًا عما بينهما من تشابهٍ كبيرٍ في الفاصلة. إن الفرق بين ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ وبين ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ﴾ مجردُ حرفِ جرٍّ من حيث التركيب، إلا أنه من حيث المدلول فارقٌ ضخمٌ يوحِّد بين قصة موسى وقصص إخوته من المرسلين في نقطة التركيز على دور الملأ، كما يميز آية الأعراف من آية الشعراء. إنّه فارق ضخمٌ تُنشئه لمسةٌ خفيَّة، لمسةٌ لا تكون إلا من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ.

هذا وقد استوقف الزمخشريَّ هذا الاختلافُ بين العبارتين فحاول تفسيره. قال: «فإن قُلْتَ: قد عزا هذا الكلامَ إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعزا ها هنا إليهم. قلتُ: قد قاله هو، وقالوه هم، فحكى قولَه ثَمَّ وقولَهم ها هنا. أو قاله ابتداءً فتلقته منه الملأُ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك.»[21] يتردد الزمخشري بين هذه الأقوال التي يفترضها لأنه لا ينظر إلى كل آية في السورة التي وردت فيها، وإنما يضع الآيتين جنبًا إلى جنب، ثم يحاول تعليل هذا الاختلاف بمعزل عن السياق

21 انظر: الزمخشري، **الكشاف**، 2: 458. سبق ذكره.

العام الذي جاءت فيه كل آية. وهذا منهجٌ، كما أسلفنا، يَحْجُبُ عنا رؤية العلاقة اللغوية الخاصة بين القصة وسورتها، وما يرتسم من خلال هذه العلاقة من صورةٍ لتناسقٍ باهرٍ بين أجزاء السورة. ولكن لا تثريب على الزمخشري، فقد كان هذا النوع من التحليل هو السائدَ في زمانه، كما هو في زماننا.

* * *

وفي سورة الأعراف كذلك، جاء قولُه تعالى: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ [الأعراف: 155]. هذه الآية تعرض مشهدًا من المشاهد العجيبة في قصة موسى، المشهد الذي اختار فيه موسى سبعين رجلًا من قومه لميقات ربه (والآية لا تَذْكُر سببًا لهذا الميقات)[22] فأخذتهم الرجفة[23] (ولا تَذْكُر الآية كذلك لماذا أخذتهم الرجفة)[24] فأخذ موسى يتضرع إلى ربه ألا يهلكهم بما فعل السفهاء منهم، ويلوذ به ويطلب الرحمة منه والغفران. وتشتمل على عدد من العبارات التي تربطها بأجزاء أخرى من السورة، منها عبارة ﴿**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا**﴾ التي يتوسل فيها موسى بعدل الله الذي يقضي ألا يُؤخذ بريء بجريرة غيره. فليس من عدل الله أن يُهْلِكَ قومًا بما فعل السفهاء منهم، وهذا ما يفيده هذا الاستفهام الذي فيه الترجي والتوسل.

من هذا النص العظيم، يقتبس النظم القرآني كلمات يضعها في آية جديدة. قال تعالى: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف: 173]. هذه الآية تعرض مشهدًا آخر يحدث في زمانٍ بعيدٍ قبل خلق موسى وبني إسرائيل، بل قبل خلق بني آدم، وذلك عندما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، وأخذ عليهم عهد الإيمان به[25] حتى لا تكون لهم حجة على الله في الكفر به، وحتى لا يكون لهم عذر في اتباع آبائهم. وترد فيها العبارة الاستفهامية المتوسلة بعدل الله التي ظهرت في الآية الأولى [الأعراف: 155] بشيءٍ من التعديل طفيف يلائم السياق الجديد: ﴿**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾. فقد أخذ الله ذلك العهد المبكر على بني آدم وهم بعدُ في الأصلاب أن يؤمنوا حتى لا يحتجوا على الله بعدله في تقليد أسلافهم.

---

22 الظاهر من سياق هذه الآية التي تأتي مباشرة بعد آيات تتحدث عن عبادة بني إسرائيل للعجل وعن غضب الله عليهم، ووعد الله بالتوبة على الذين تابوا منهم بعد ما كان منهم [الأعراف: 148-154]. الظاهر من هذا كله أن سبب الميقات هو منح الفرصة للمختارين من قوم موسى أن يتوبوا إلى ربهم مما كان منهم من عبادة العجل.

23 الرجفة لا تُذكر في قصة موسى في القرآن إلا في هذا الموضع تنسيقًا مع ذكرها في قصة صالح مع ثمود [الأعراف: 78]، وفي قصة شعيب مع مدين [الأعراف: 91]، وربطًا لهذه الحادثة في قصة موسى بنظيرتيها في قصَّتَيْ صالح وشعيب.

24 الظاهر أن سبب الرجفة هو أنهم طلبوا أن يرَوُا الله جهرةً كما جاء في سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [البقرة: 55].

25 جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: 172].

إنَّ القاسم المشترك بين المشهدين هو أنهما يقعان في حضرة المولى عز وجل، وكلاهما يشتمل على التوسل بعدل الله. هذا من حيث الغرض. أما من حيث اللغة، فإن عبارة «تُهْلِكُنا بِما فَعَل» لا تقع في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة الأعراف، رابطةً بين قصة موسى في الميقات، وقصة أخذ عهد الإيمان على بني آدم وهم بعدُ في الأصلاب، مع أنها تتألف من كلماتٍ كثيرة الشيوع في القرآن. فمادة «هلك» تتردد في القرآن ثمانيًا وستين مرة بصيغها المختلفة، وعبارة «بِما» تقع في مائتين وخمسٍ وتسعين آية، ومادة «فعل» تتردد مائةً وثماني مرات. ومع هذا الشيوع الكثير لهذه الكلمات، فإن هذا التركيب النحوي الذي يتألف منها لا يظهر إلا في هذَيْنِ المشهدين. ونلاحظ أيضًا أن الآيتين تشتملان على عبارة ﴿**مِّن قَبْلُ**﴾ مما يضيف عنصرًا جديدًا في التناظر اللفظي المتفرد بينهما. وهنا نجد مرةً أخرى أن القرآن يعبر عن مشهدٍ وقع في عالَم الشهادة وآخر في عالَم الغيب بلغة واحدة.

* * *

وفي سورة الأعراف أيضًا، جاء قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: 143]. هذا مشهد آخر عظيم من قصة موسى في الأعراف لا يرد في القرآن كله إلا في هذه السورة. وفيه يسأل موسى ربَّهُ أن ينظر إليه فيأتيه الجواب أنه لن يراه، وأن ذلك فوق طاقته، بل فوق طاقة احتمال الجبل الذي هو أقوى منه وأضخم. ويضرب الله له مثلًا عمليًّا فيتجلى للجبل فيجعله دكًّا يتفتت على ضخامته إلى ذرات متناثرة، لا يثبت لتجلي الرب العظيم، فيخر موسى صَعقًا من هول ما رأى، وعظمة ما وقعت عليه عيناه. ثم يفيق من الصعقة مسبِّحًا لله، ومعلنًا توبته إليه، ومُقرًّا بأنه أول المؤمنين. إن أعظم ما في هذا المشهد هو تجلي الرب العظيم للجبل وعليه مدار الأحداث في الآية.

من هذا المشهد الفريد يقتبس النظم القرآني أهم كلمتين فيه وهما «التجلي» و«الرب» ثم يضعهما بشيء من التحوير والتقديم والتأخير في آية أخرى من نفس السورة ليرسم مشهدًا آخرَ فريدًا لا يرد في القرآن كله إلا في هذه السورة. قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 187]. هذه الآية تتحدث عن الساعة، وترد على سؤال السائلين عن أوان وقوعها، وتقرر أنه مما استأثر الله بعلمه، وأنه لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو، وأنها عظيمة الشأن وقد ثقلت في السماوات والأرض، وأنها لا تأتي الناس إلا بغتة، تفاجئهم بوقوعها بلا علاماتٍ تسبقها ولا مقدماتٍ تأتي بين يديها وإلا انتفى عنصر المباغتة الذي يؤكده القرآن مرارًا وتكرارًا، وأنَّ السؤال عنها ينبغي ألا يوجَّه إلى الرسول لأنه ليس معنيًّا بها ولا علم له بها، إنما علمها عند الله، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون. والساعة لا توصف بالتَّجْلِية في القرآن كله إلا في هذه السورة تنسيقًا لها مع مشهد تجلِّي الله سبحانه للجبل.

يلتقي هذا المشهدان الفريدان في اللغة وفي الغرض. أما اللغة فإن كلمة «تجلَّى» وصيغتها الأخرى «جلَّى» لا تجتمع بكلمة «الرب» في آية واحدة في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة الأعراف، اللتين تتلاحمان بهذا الرباط اللغوي الفريد. ومادة «جلَو» أصلًا نادرة جدًّا في القرآن فلا تقع فيه إلا خمس مرات، مرتين في هذه السورة وثلاث مرات في ثلاث سور مختلفة.[26] كما نلاحظ أن الآية الأولى [الأعراف: 143] تشتمل على عبارة ﴿**لِمِيقَاتِنَا**﴾ والآية الثانية [الأعراف: 187] على عبارة ﴿**لِوَقْتِهَا**﴾ وكلتاهما من الجذر الثلاثي نفسه «وقت» الذي لا يقع في القرآن بصيغه المختلفة إلا ثلاث عشرة مرة، والذي يتكرر في الأعراف وحدها أربع مرات[27]، وكلتاهما مسبوقة بلام الجر، وكلتاهما مضافة إلى ضمير متصل. فكلمة «وقْت» لا تأتي مسبوقةً بحرف جَرٍّ ومضافةً إلى ضميرٍ ﴿**لِوَقْتِهَا**﴾ إلا في هذه السورة لتحقيق التناسق بينها وبين عبارة ﴿**لِمِيقَاتِنَا**﴾.

وأما الغرض فمن وجهين. الوجه الأول أنَّ الآيتين فيهما القول الفصل عن أهمِّ غَيْبَيْنِ من الغيوب تَطَلَّعَ الإنسان دائمًا إلى إدراكهما بحواسه والاطلاع عليهما مدفوعًا بفضوله (وهذا الفضول موجود حتى في الأنبياء الذين يُوحَى إليهم ناهيك عن غيرهم من البشر)، وهما رؤية الله سبحانه ومعرفة موعد قيام الساعة، وتُقَرِّرانِ أنَّهما مما ليس للإنسان إدراكُه بحواسه والاطلاعُ عليه. ولا يعنينا الخوض هنا في الخلاف الكلامي الذي ظهر بين الفرق الإسلامية في العصر العباسي حول رؤية الله ﷻ في الآخرة. والوجه الثاني أن الفاعل للتجَلِّي في الآية الأولى [الأعراف: 143]، وللتَّجْلية في الآية الثانية [الأعراف: 187] هو الله سبحانه. فلما تجلى الله للجبل اندكَّ الجبلُ ونُسِف، وحين يجلِّي اللهُ الساعةَ لوقتها في الموعد المقرر لها عنده ستندَكُّ الجبال وينسفها الله نسفًا، كما جاء في مواضعَ أخرى في القرآن. بهذا التناسق المتفرد العجيب في اللفظ وفي المضمون تتلاحم الآيتان. نكتفي بهذا القدر من سورة الأعراف الزاخرة بمثل هذه الأمثلة خشية الإطالة وننتقل إلى سور أخرى.

* * *

وفي سورة المائدة، وهي مدنية وردت فيها آخر حلقة من حلقات قصة موسى في القرآن – وهي حلقة لا ترد إلا في هذه السورة – جاء قولُه تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: 20]. وقولُه تعالى: ﴿**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: 114-115]. هاتان الآيتان، [المائدة: 20]، و[المائدة: 115]. تقعان على طرفي سورة المائدة، وفي قصتين مختلفتين، وفي زمنين متباعدين.

---

26 وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ**﴾ [الحشر: 3]، وقوله تعالى: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا**﴾ [الشمس: 3]، وقوله تعالى: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ**﴾ [الليل: 2].

27 [الأعراف: 142، 143، 155، 187].

فالآية الأولى [المائدة: 20] تفتتح قصة موسى في سورة المائدة، وفيها يذَكِّر موسى قومه بنعمة الله عليهم في تاريخهم الحافل الطويل، يذكِّرهم بأنه جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكًا، فجمع لهم مجد السماء بمجد الأرض، وآتاهم ما لم يُؤتِ ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: ففلق لهم البحر وأنجاهم من العذاب المهين وأغرق عدوهم، وفجَّرَ لهم عيون الماء من الحجر لما أصابهم العطش في الصحراء، وظلَّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى حتى قالوا لن نصبر على طعام واحد. يذكِّرهم موسى بكل هذا وهم على أبواب الأرض المقدسة التي كتب الله لهم لكي يشجعهم على دخولها واثقين بنصر الله لهم على عدوهم وقد نصرهم من قبل في مواطن كثيرة. إلا أن هذا التذكير لم يُجْدِ نفعًا، فقد أبى بنو إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة لأن فيها قومًا جبارين، كما سيأتي.

والآية الثانية [المائدة: 115] والآيات التي قبلها[28] تتحدث عن قصة المائدة التي أخذت السورة اسمها منها، تلك المائدة التي طلب الحواريون إلى عيسى بن مريم عليه السلام أن يسأل ربه أن يُنَزِّلَها عليهم من السماء، فحذَّرهم عاقبةَ هذا الطلب، وأمرهم أن يتقوا الله إن كانوا مؤمنين. ولكن لما أصروا على طلبهم، دعا عيسى ربَّه أن ينزل عليهم مائدةً من السماء، فاستجاب الله لدعائه ولكنه اشترط عليهم أنه من يكفر بعد ذلك منهم فإنه يعذبه عذابًا لا يعذبه ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وبين هاتين الآيتين تلاحم في اللفظ وفي الغرض. أما اللفظ فيتمثل في عبارة ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ التي لا ترِد في القرآن كله إلا في هاتين القصتين على الرغم من شيوع الكلمتين اللتين تتألف منهما، إذْ إن كلمة «أحد» تتكرر أربعًا وسبعين مرة، وكلمة «العالمين» ثلاثًا وسبعين مرة. وأمّا الغرض فيتمثل في أن الله تعالى آتى بني إسرائيل ما لم يُؤْتِ أحدًا من العالمين، ومن ذلك أنه أنزل عليهم المنَّ والسلوى، ورزقهم رزقًا طيبًا يأتيهم من السماء، فلم يشكروه. وها هم أولئك حَفَدَتُهُمْ من الحواريِّين يسألون أن يُنزِّلَ الله عليهم مائدةً من السماء، فالله يحذرهم ألا يكفروا مثلما كفر أسلافهم بنعمته، ويتوعد من يكفر منهم بعد إنزال المائدة أن يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين. ذلك أن الذي يؤتيه الله ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين يستحق أن يعذبه الله عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

إنَّ التلاحم في اللفظ بين القصتين تشهد له العبارة المتفردة التي ترِد في الآيتين وهي قوله تعالى: ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. وهذه العبارة دليلٌ نصيٌّ ماديٌّ ملموسٌ يربط بين القصتين المتباعدتين ربطًا متفردًا لا نظير له في القرآن. أما التلاحم في الغرض، والذي يربط بين طلب الحواريين لمائدة تنزل عليهم من السماء وبين المنِّ والسلوى الذي كان ينزل على بني إسرائيل، أسلافِ الحواريين، فقد كان اجتهادًا مني يقوم على ما يوحي به التلاحم اللفظي. إلا أنني بعد ما فَرَغْتُ من كتابة هذه الفقرة، راجعتُ ما كتبه بعض الغربيين حول قصة المائدة في القرآن وفي الأناجيل[29]، فوجدت نصوصًا في الأناجيل تربط بين قصة المائدة عند الحواريين وبين ما كان ينزل

28 قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 111-112].

29 Gabriel Said Reynolds, "The Qur'an and the apostles of Jesus," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, First View Article, May 2-13, p. 12. Available on CJO 2013 doi: 10.1017/ S0041977X13000062

على بني إسرائيل من المنِّ والسلوى. جاء في إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس: 30-31 ما يلي: [30]**فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ [31]آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا.»** هذا النص جزء من حوار يدور بين يسوع (عيسى بن مريم عليه السلام) وبين تلاميذه، والشاهدُ فيه قولُ التلاميذ: [31]**آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ**، وهو قول يؤكد ما يوحي به التلاحم اللفظي بين القصتين في القرآن، ويعبر بالتصريح عما أشار إليه القرآن بالتلميح، مما يدل على أن النص القرآني نص حافل بالتلميحات الخفية والإشارات الرمزية، وأنَّ بناء التلاحم اللغوي فيه ينطوي على أسرارٍ كثيرةٍ ومثيرةٍ يحتاج كشفُ النقابِ عنها إلى جهودٍ متضافرةٍ يحتشد لها جمع غفير من الباحثين المتخصصين في فروع الدراسات القرآنية المختلفة.

وفي سورة المائدة أيضًا، جاء قولُه تعالى: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: 24]. في هذه الآية يقول بنو إسرائيل كلمتهم الأخيرة في رفضهم القاطع لدخول الأرض المقدسة، وذلك بعد أن حاول نبيهم موسى إقناعهم بدخولها واثقين بنصر الله الذي كان معهم في تاريخهم الطويل. إنهم يصرون على ألا يدخلوا الأرض لأن فيها قومًا جبارين، ولا يريدون أن يدخلوها حتى يخرج منها هؤلاء الجبارون، ويعلنون بصراحة قاطعة أنهم لن يدخلوها أبدًا ﴿**مَّا دَامُوا فِيهَا**﴾. لا يريدون أن يدفعوا ثمنًا لاستعادة أرضهم، وإنما يريدون أن يستعيدوها بلا ثمن؛ بل يريدون لموسى أن يقاتل القومَ هو وربُّه وهم في مكانهم قاعدون.

من هذا الحوار الذي يخالف فيه بنو إسرائيل رسولَهم هذه المخالفة الصريحة الصارخة، يأخذ النظم القرآني عبارة ﴿**مَّا دَامُوا فِيهَا**﴾ النادرة الوقوع في القرآن، ويُجْري عليها شيئًا من التحوير يناسب المقام، ويضعها في حوارٍ آخر يخالف فيه أتباعُ عيسى بن مريم أمرَ رسولهم مخالفةً صريحةً صارخةً كذلك. قال تعالى: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [المائدة: 117]. هذه الآية جزء من الحوار الذي يدور بين الله سبحانه وبين عيسى بن مريم في مشهد من مشاهد القيامة، وفيه يجيب عيسى عليه السلام ربه الذي سأله إن كان قال للناس ﴿**اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة: 116]، فيقول له إنه لم يأمرهم إلا بما أمره به، وهو أن يعبدوا الله ربَّه وربَّهم، وإنه تركهم على ذلك، وذلك آخر عهده بهم: ﴿**وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾. أما بعد ما توفاه الله، فكان اللهُ وحدَهُ هو الرقيبَ عليهم وهو على كل شيءٍ شهيد.

وواضحٌ ما بين الآيتين من تلاحم في اللفظ وتلاقٍ في المعنى. فالتلاحم اللفظي يتجلى في ظهور تعبير ﴿**مَّا دَامُوا فِيهَا**﴾ في الآية الأولى، وتعبير ﴿**مَّا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾ في الآية الثانية. فعبارة «ما دام» نادرة لا تقع في القرآن إلاّ ستّ مرات: منها ثلاث مرّات في سورة المائدة[30]، ومرّتين في هود[31]، ومرةً واحدةً في آل عمران.

---

30 المرة الثالثة هي قوله تعالى: ﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ [المائدة: 96].

31 قال تعالى: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**﴾ [هود: 107، و108].

[32] وهي مع هذه الندرة تتكرر في المائدة ثلاث مرات. وفوق ذلك، فهي لا تأتي متبوعةً في القرآن كله بشبه الجملة أو الجار والمجرور «فيها» و«فيهم» إلا في هاتين الآيتين. فهذه الخاصية هي التي تجعلها آصرة متفردة. أما التلاقي في المعنى فيتجلى كما رأينا في مخالفة قوم موسى لأمر نبيهم في دخول الأرض المقدسة، وفي مخالفة النصارى لما جاء به عيسى عليه السلام من التوحيد الخالص. وهكذا تلتقي القصتان مرة أخرى على ما بينهما من تباعد في السورة وفي التاريخ.

* * *

وفي سورة المائدة كذلك، جاء قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ [المائدة: 25-26]. بهاتين الآيتين تُختم قصةُ موسى في سورة المائدة، وبهما كذلك تُختم قصتُه في القرآن. فالآية الأولى تتضمن آخر كلماته في القرآن، وآخر مشهدٍ له مع قومه، وهو مشهد يَقْطُرُ أسًى وحزنًا، وقد خذله قومه وعَصَوْه وأبَوْا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهم على أبوابها، والنصرُ الختاميُّ منهم قاب قوسين أو أدنى، خوفًا من قتال الجبارين على النحو الذي مرَّ بنا في الفقرة السابقة. بعد هذه النهاية الأليمة لرحلته الشاقة الطويلة مع بني إسرائيل وجهاده المضني لتحريرهم، يسأل موسى ربه أن يَفْصِلَ بينه وبينهم لأنه لم يَعُدْ يملك إلا نفسه وأخاه، ويسأله بصيغة توحي بيأسه منهم. فهو لا يسأل أن يفرِّق الله بينه وبين قومه، ولكن بينه وبين ﴿**الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾، فلا يضيفهم إلى نفسه كأنما أصبحوا قومًا آخرين بعيدين لا يعرفهم ولا يعرفونه بعد أنْ فسقوا عن أمر ربهم. والآية الثانية تتضمن استجابةَ الله لدعوة موسى، وتحريمَ الأرض المقدسة على بني إسرائيل، والحكمَ عليهم بالتيه في الأرض أربعين سنة. وفيها يواسي اللهُ سبحانه نبيَّه الكريم على النهاية الأليمة لرحلته الطويلة ألا يحزن على القوم الفاسقين: ﴿**فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾، مع التأكيد على وصف الفسق الذي اختاره لهم موسى. فهو قد أدى ما عليه، وقام برسالته خير قيام، فلا لوم عليه ولا تثريب، وإنما هم يحملون وزر فسقهم عن أمر ربهم ونكوصهم على أعقابهم. ونلاحظ هنا أن تعبير ﴿**الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ لا يأتي في القرآن كله في ختام آيتين متتاليتين إلا في هاتين الآيتين [المائدة: 25-26]، وهو أصلًا تعبير نادر لا يقع في القرآن إلا ثماني مرات.

من هاتين الآيتين، يقتبس النظم القرآني كلماتهما الختامية ويدخلها في آيتين متتاليتين من سورة المائدة بشيء من التعديل يلائم السياق الجديد. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: 67-68]. هاتان الآيتان تأتيان بعد آيات كثيرة تتحدث عن أهل

32 قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**﴾ [آل عمران: 75].

الكتاب [المائدة: 51-66]، وتَنْهَى المسلمين أن يتخذوهم أولياء لأنهم، هم وغيرهم من الكفار، يستهزئون بهم ويتخذون دينهم ونداءهم إلى الصلاة لعبًا وهزوًا، وخاصة اليهود الذين يقولون يد الله مغلولة، والذين كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فسادًا، والله لا يحب المفسدين. بعد هذه الآيات تأتي هاتان الآيتان: فالأولى تأمر الرسول ﷺ بتبليغ ما أُنزل إليه من ربه، وإن لم يفعل فما بلَّغ رسالته، والله يعصمه من الناس ويحميه، وتنتهي بتقرير كفر أهل الكتاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. والثانية تأمره ﷺ أن يُبَيِّن لأهل الكتاب السبب الذي أدى إلى الحكم بكفرهم، ويقول لهم إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. ثم تُقَرِّرُ أنَّ ما أُنْزِل إلى الرسول من ربه سيزيد كثيرًا منهم طغيانًا وكفرًا، وتنتهي بمواساته ﷺ ألا يَحْزَنَ على القوم الكافرين: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، مع التأكيد على كفرهم، كما أكدت الآيتان السابقتان في قصة موسى على فسق بني إسرائيل. ونلاحظ هنا أيضًا أن تعبير ﴿الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لا يقع في القرآن كله في ختام آيتين متتاليتين إلا في هاتين الآيتين [المائدة: 67-68]، وهو أصلًا تعبير نادر لا يرِد في القرآن كله إلا تسع مرات. وبهذا يتحقق التناظر بين هاتين الآيتين والآيتين السابقتين.

فالعلاقة الغرضية واللفظية بين النصين واضحة. فمن حيث الغرض، رأينا في النص الأول خذلان بني إسرائيل لنبيهم موسى وعصيانهم له ونكولهم عن دخول الأرض المقدسة، حتى يئس منهم وسأل الله أن يفرق بينه وبينهم، فاستجاب الله لدعائه وقضى عليهم بالتيه في الأرض أربعين سنة، ثم واساه ألا يحزن عليهم لأنهم فاسقون. وفي النص الثاني رأينا أهل الكتاب، وخاصة اليهود، يناصبون العداء آخر نبي بعثه الله إلى الناس كافة، بمن فيهم أهل الكتاب. وفيه يأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يبَلِّغ رسالة ربه معصومًا من الناس، محفوفًا برعايته، ومحفوظًا بحمايته، ويُبَيِّن له أن ما أُنْزِلَ إليه من ربه سيوغر صدور كثير من أهل الكتاب ويزيدهم طغيانًا وكفرًا، ثم يواسيه - كما واسى أخاه موسى من قبل - ألا يحزن عليهم لأنهم قوم كافرون. وعلة كفرهم أنهم لم يؤمنوا بما جاء به النبي ﷺ. وفي هذا، وفي كثيرٍ مثلِه في القرآن، ما يقطع بأن الله لا يقبل دينًا غير الإسلام على الصورة التي جاء بها نبي الإسلام.

ومن حيث اللفظ، فقد مرَّ بنا تفرد النصين بتكرر عبارات ختامية لا تقع في القرآن كله إلا فيهما. وإذا نظرنا إلى العبارة الختامية في الآية الثانية في كلٍّ من النصين، وجدنا أن عبارة ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ﴾ لا ترِد في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين من سورة المائدة، رغم الشيوع الكثير للكلمات التي تتألف منها. فعبارة «فلا» تتكرر في القرآن في مائَتَيْ آية، وحرف الجر «على» في ستِّمائة وخمسٍ وثلاثين آية، وتتكرر كلمة «قَوْم» ثلاثمائة وثلاثًا وثمانين مرة. أما الفعل «أَسِيَ، يأْسَى»، كرَضِيَ، يَرْضَى، فنادر لا يقع في القرآن إلا أربع مرات: مرتين في المائدة، ومرةً واحدةً في كلٍّ من الأعراف والحديد. وقد ذكرنا لماذا اختلفت الكلمة التي تصف «القوم» في كلٍّ من النصين. وهكذا تلتقي قصة موسى عليه السلام بقصة نبينا محمد ﷺ، كما التقت قصته من قبل بقصة عيسى عليه السلام في تلاحمٍ عجيب لا يقع مثله إلا في القرآن، الكتابِ الذي أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

* * *

وفي سورة يونس – وقد وعدنا في الفصل السابق أن نعرض تلاحم قصة موسى مع بقية أجزاء هذه السورة – جاء قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِۦٓ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾ [يونس: 50-51]. هاتان الآيتان تعرضان صورتين متقابلتين: صورةً للكفر في وقت الرخاء، وصورةً للإيمان في ساعة الشدة. ففي الآية الأُولى يستعجل المجرمون عذاب الله الذي يمكن أن يباغتهم في أي لحظة، في ليلٍ أو نهار. وهذا الاستعجال غريب لأن الأصل في المجرم ألا يستعجل العذاب لأنه إذا وقع فلا بد مصيبه لأنه مجرم، على خلاف البريء الذي يرجو النجاة من العذاب حين وقوعه. ثم إن الاستعجال عادةً للخير، لا للشَّر. ولكن لما أمعن المجرمون في كفرهم وإنكارهم لعذاب الله واستبعدوا وقوعه استبعاداً تامًّا استعجلوه. وفي الآية الثانية يعلن هؤلاء المجرمون أنفسهم إيمانهم لَمَّا وقع عليهم العذابُ الذي كانوا يستعجلونه، وينهار كفرهم وعنادهم أمام العذاب الواقع، ولكنه إيمان لا ينفع لأنه جاء في ساعة الشدة، لا في إبّان الرخاء. إنه جاء كَرْهًا ولم يأتِ طوعًا. فالله لا يقبل إيمان المضطرين، وإنما يقبل إيمان المختارين: ﴿**آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ**﴾، فقد فات أوان الإيمان.

لقد كان هذا كله تصويرًا لِمَا يتعاور النفس الإنسانية من حالة الكفر في النعماء وحالة الإيمان في الضراء – وفق ما يعلمه من طبع هذه النفس خالقها اللطيف الخبير – ولم يكن حكايةً لقصةٍ وقعت، لأن هذا التصوير إنما جاء في سياق الحِجَاج مع الكفار الذين كانوا يستعجلون العذاب، مغترِّين بإمهال الله لهم. فأراد القرآن أن يضرب لهم مثلًا من التاريخ، ممن كفروا في اليسر وآمنوا في العسر، يَصْدُقُ فيه هذا التصوير للنفس الإنسانية من الوقائع التاريخية، فاختار لهم قصة فرعون، واختار على الأخص نهاية تلك القصة لأنها تصور أبدع تصوير إيمان المجرم العاتي في ساعة الهول وعند وقوع العذاب. ولكنه لم يكتفِ بحسن اختيار اللقطة المناسبة من القصة، وإنما اقتبس كلماتٍ من النص السابق وأدخلها في النص الجديد حتى يتحقق التلاحم بين النصين في اللفظ وفي الغرض على ما هو معهود في النظم القرآني.

قال تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: 90-91]. هذا النص يعرض كذلك صورتين متقابلتين: صورةً للكفر في وقت الرخاء وصورةً للإيمان في ساعة الشدة. ففي الصورة الأُولى نرى العُتُوَّ الطاغيَ والجبروتَ الأعمى لفرعون الذي يُصِرُّ على ملاحقة بني إسرائيل وهو يراهم قد انفلق لهم البحر وجاوزوه بمعجزة ظاهرة باهرة، إلا أن طغيانه يُعْميه عن رؤية المعجزة الظاهرة الباهرة فيظل يطاردهم بغيًا وعدوًا. والسياق هنا يُبْرِزُ البغيَ والعدوانَ – باستعمال التنوين الذي يفيد التعليل وجمال الإيقاع معًا – لينتقل من هذا المشهد مباشرة إلى الصورة المقابلة، صورة فرعون في انكساره واندحاره، واستسلامه الذليل أمام الغرق الذي يوشك أنْ يلتهمه، فإذا هو الآن يعلن إيمانه، بل يعلن إسلامه، ولكن حين لا ينفع الإيمان ولا يُقبل الإسلام. فيأتيه الرد: ﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ**

﴿الْمُفْسِدِينَ﴾، آلآن وقد حاصرك الموت من كل جانب؟ آلآن وقد جاءك موسى بالبينات من قبل فعصيت واستكبرت، وطغيت وتجبرت، وكنت من المفسدين؟ آلآن وبعد فوات الأوان؟[33]

إنّ العلاقة الغرضية بين النصين من الوضوح والجلاء بحيث لا تحتاج إلى علاقة لفظية تثبت وجودها. إلا أن النص القرآني لم يكتف بهذا الوضوح والجلاء، كما أسلفنا، وإنما اختار بناءً لفظيًّا خاصًّا يربط بين هذَيْنِ النصين. وهذا البناء اللفظي يتمثل في هذا التركيب ﴿آلْآنَ وَقَدْ﴾ الذي لا يردُ مثله في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة يونس. فكلمة «الآن» تقع في القرآن ثمانيَ مرات، ولكنها لا تأتي مسبوقةً بهمزة الاستفهام إلا في سورة يونس، ولا تأتي متبوعةً بعبارة «وقَدْ» التي تتكرر في القرآن ثلاثًا وأربعين مرة إلا في هذه السورة كذلك (وهي عبارة إذا وقعت في درج الكلام، أفادت التعَجُّب أو التعْجِيب أو الاستنكار أو استبعاد الوقوع في أكثر مواقعها، وكثيرًا ما تقع بعد استفهام أو نفي).[34] إنّ هذه العلاقة اللفظية المتفردة هي التي تقطع بوجود القصد والتصميم من وراء وضع هذَيْنِ النصين في سورة واحدة، وهي التي تمنع أن ينتقل أحدهما إلى سورة أخرى غير سورة يونس، كسورة الأعراف أو النمل أو القصص أو غيرها من السور التي فيها قصة موسى، والتي تشترك في فاصلتها مع سورة يونس.

على أنّ هذه اللقطة من قصة موسى تتصل أيضًا بجزء آخر من السورة يعالج موضوع إيمان الاضطرار، وهو موضوع يتكرر في سورة يونس بصور مختلفة.[35] فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22]. تعرض هذه الآية مشهدًا شبيهًا بالمشهدين السابقين اللذين مرَّا بنا. إنها تقرر أولًا أن الله هو الذي يسيِّر الناس في البر والبحر ولا يملك ذلك أحدٌ غيره، وفي هذا التقرير ما يوحي بغفلة الناس عن هذه النعمة. ثم تعرض مشهد قوم فرحين بسير سفينتهم في البحر تجري بهم ريح طيبة. ونفهم من السياق أنهم قوم غافلون عن قدرة الله التي تسيِّرهم في البر والبحر، وساهون عن نعمة الله التي تُجْرِي لهم الريح الطيبة التي تسيِّر سفينتهم. ثم ينقلب المشهد فجأة وهم في غفلتهم تلك وسهوتهم غارُّون آمنون فرحون[36]، فإذا

---

33 وقد لاحظ سيد قطب وجود الترابط بين استعجال الكفار بالوعيد، وتهديدهم بأنه يقع بغتة، حيث لا ينفعهم وقتها إيمان ولا توبة، وبين مجيء القصص بعد ذلك في السورة، مصورًا ذلك المشهد بعينه في مصارع الغابرين. وهذا الترابط اللفظي الذي نشير إليه هنا في هذا البحث إنما يؤكد ما لاحظه سيد من الترابط المعنوي. انظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1573.

34 فمن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 21]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: 80]. وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: 13]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]. وقوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 161].

35 فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96-97].

36 جاء في الظلال: «﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾.. وفي هذا الرخاء الآمن، وفي هذا السرور الشامل، تقع المفاجأة، فتأخذ الغارّين الآمنين الفرحين: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾...». انظر: سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 1774.

ريح عاصف تهب وتهيج، وإذا الموج العاتي يأتيهم من كل مكان ويطوقهم، فيدركون أنهم أحيط بهم، وأنْ لا ملجأ لهم ولا ملاذ إلا الله. هنالك يدعون ربهم مخلصين له الدين أن ينقذهم مما هم فيه، ويعاهدونه لَئِنْ أنجاهم من هذه لَيَكُونُنَّ من الشاكرين.

إنّه مشهد الإيمان الاضطراري نفسه الذي مرَّ بنا من قبل. ولكن القرآن لا يكتفي بهذا التشابه في الغرض بين النصوص المختلفة التي تتحدث عن مثل هذا الإيمان، وإنما يجسده بصورة لفظية تقطع بقيام الاتصال بينها. ففي هذه الآية [يونس: 22] وردت عبارة «حتى إذا» – التي تتكرر في القرآن إحدى وأربعين مرة – في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾، وقد وردت العبارة نفسها في قصة غرق فرعون في الآية السابقة [يونس: 90] في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾. ولكن إذا كانت عبارة «حتى إذا» تتكرر في القرآن إحدى وأربعين مرة، فما الذي يجعلها في هذه السورة آصرة متفردة لها قوة الربط بين هاتين الآيتين؟ إن الذي يجعلها آصرة متفردة هو أنها في كل مواقعها في القرآن لا تجتمع بكلمة «البحر» في آية واحدة إلا في هاتين الآيتين من سورة يونس. ذلك لأن البحر هو مسرح الأحداث في المشهدين. فأهل السفينة استغاثوا بربهم لَمَّا أشرفوا على الهلاك في البحر، وكذلك فرعون أعلن إيمانه لَمَّا رأى الموت في البحر. ففي المشهد الأول يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: 22]. وفي المشهد الثاني يقول تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس: 90]. وهكذا يتوافق اللفظ والغرض في تناسق تام في نصين متباعدين.

* * *

وفي سورة يونس كذلك، جاء قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [يونس: 7-8]. هذا النص الذي يقع في مطالع سورة يونس يندد بالغافلين عن آيات الله، الذين لا يرجون لقاء الله، المنغمسين في الحياة الدنيا، راضين بها مطمئنين، لا يتطلعون إلى ما وراءها، إلى ما بعد الموت من حسابٍ وجزاء. أولئك الذين اختاروا أن تكون الدنيا مأواهم يَلْقَوْنَ النارَ مأواهم في الآخرة جزاء لغفلتهم عن آيات الله التي نصبت لهم دليلًا على الآخرة. والنص يُبرز الغفلة عن آيات الله ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ**﴾ لأنه يأتي بعد آيتين [يونس: 5-6][37] تتحدثان عن آيات الله المنظورة في الكون والتي ينتفع بها الناس ويلمسون آثارها في حياتهم: عن الشمس التي ينتفعون بضيائها، وعن القمر الذي يَعْلَمون بمنازله عددَ السنين والحساب، وعن اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض، وما يترتّب على ذلك من انتظام حياتهم ومعاشهم. في ذلك كله آيات للذين يعلمون، وللذين يتقون.

يقتبس النظم القرآني من هذا النص الذي في مطالع السورة العبارةَ الختاميَّةَ للآية الأولى، وهي قوله تعالى: ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، ويجعلها عبارةً يختم بها قصة فرعون قبيل نهاية السورة بتعديلٍ يسيرٍ يناسب التركيب

37 هما قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: 5-6].

الذي تقع فيه. قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 92]. لقد رأينا فيما سبق من قصة فرعون أنّه أعلن إيمانه وإسلامه لما رأى الموت رأي العين راجيًا في أن يُنَجِّيَهُ هذا الإعلان من الغرق. فقد تحقق له هذا الرجاء في هذه الآية ولكن بما يخزيه ويفضحه ويجعله عبرةً للمعتبرين. إنَّهُ اليومَ يُنَجَّى ببدنه، لا لينفعه إيمانه ولا ليُقبل منه إسلامه، ولكن ليكون لمن خلفه آية. وإنها لتنجيةٌ قاسيةٌ لِمَا فيها من التهكم المرير، فهي تنجيةٌ خيرٌ منها الغرق. إنها آية جديدة، آيةٌ فريدةٌ لا مثيل لها في التاريخ، تضاف إلى آيات الله المبثوثة في الكون، تلك الآيات التي يغفل عنها الذين لا يرجون لقاء الله. لذلك تُختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾، غافلون عن آيات الله على ظهورها لكثرة ما ألفوها، فعسى أن تلفت نظرهم هذه الآية العجيبة التي تصور نهاية أكبر طاغية في التاريخ.

بمثل هذا التناغم في اللغة وفي الهدف يرتبط مطلع السورة بقصة موسى. ويزداد هذا الارتباط وضوحًا حين نعلم أن العبارة الختامية للآيتين لا تقع في القرآن كله إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة يونس. ومع أن عبارة «آياتنا» تتكرر في القرآن إحدى وتسعين مرة، وحتى عبارة «بآياتنا» المسبوقة بالباء تتكرر سبعًا وخمسين مرة، إلا أنَّ «آياتنا» لا تأتي مسبوقةً بحرف الجر «عن» إلا في ثلاثة مواضع في القرآن. موضعان منها في هذه السورة وموضع واحد في الأنعام [الأنعام: 157]. وكذلك مادة «غفل» تقع خمسًا وثلاثين مرةً في القرآن، أكثرها بصيغة اسم الفاعل، ولكنها لا تقع تاليةً لعبارة ﴿عَنْ آيَاتِنَا﴾ النادرة إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة يونس. فقد خُتمت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: 7]، والثانية بقوله: ﴿عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 92] على بُعد ما بينهما من المسافة. هذا ولا تُذكر حادثة تنجية فرعون ببدنه في القرآن إلا في هذا الموضع من سورة يونس حتى يتم هذا التناسق بين مطلع السورة الذي يتحدث عن آيات الله في الكون، وبين نهاية فرعون التي جعلها الله آية للناس.

* * *

وفي سورة هود ترد حلقة قصيرة من قصة موسى في أربع آيات [هود: 96-99].[38] وهذه الحلقة على قِصَرها تتضمن عناصر لغوية متفردة تربطها ببقية السورة، وخاصة بقصص المرسلين فيها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * [39] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 96-97]. هذا النص يفتتح قصة موسى في هود، وتتضمن الآية الثانية فيه عبارة ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ﴾، وهي عبارة

38 إلى جانب هذه الآيات الأربع التي تعرض قصة موسى وفرعون باختصار، فهناك إشارتان إلى موسى والكتاب الذي آتاه الله في هذه السورة [هود: 17، 110].

39 هذه الآية تشتمل على عبارة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾، وهي عبارة تُفتتح بها قصة موسى في أربع سور في القرآن وتمنحها خصوصية ليست لغيرها من القصص القرآني. فحيثما وردت، جاءت بعدها عبارة ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التي تتكرر سبعًا وخمسين مرة في القرآن، والتي لا تجتمع – مع ذلك – في آية واحدة مع قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لجميع رسله إلا في قصة موسى. والسور الأربع هي هود، وإبراهيم، وغافر، والزخرف. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 5]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: 23]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: 46]. كما لا تجتمع عبارة ﴿بِآيَاتِنَا﴾ بعبارة ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ في القرآن إلا في قصة موسى في ثلاث سور هي هود، وغافر، والمؤمنون. لقد ذكرنا ما جاء من ذلك في هود وغافر، ونذكر ما جاء في المؤمنون. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: 45].

استعارها النظم القرآني من آية سابقة وردت قُبيل نهاية قصة هودٍ مع عادٍ في السورة. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59]. هذه العبارة لا ترِد في القرآن كله إلا في هذَيْن الموضعين من سورة هود، وهي تؤكد، بلفظها ومدلولها، وحدة استقبال الأجيال البشرية للرسل، ونزعتهم الدائمة إلى اتباع الجبارين وعصيان المرسلين. ومع أن كلمة «أَمْر» تتكرر بصيغتها الاسمية وحدها مائةً وستًّا وستين مرة، إلا أنها لا تقع مفعولًا به للفعل «اتَّبع» الذي يتكرر مائةً وستًّا وثلاثين مرة، إلا في هذَيْن الموضعين من سورة هود.

وكذلك يشتمل هذا النص نفسه على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾. ولا تقع كلمة «رشيد» في القرآن كله إلا في ثلاثة مواضع من سورة هود، وتقع فاصلةً في المواضع الثلاثة موزعةً في ثلاث قِصص مختلفة: قصة موسى مع فرعون، وقصة لوطٍ مع قومه، وقصة شعيب مع قومه. ففي قصة لوط، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: 78]. وفي قصة شعيب، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]. وفي القصص الثلاث، تُستعمل كلمة «رشيد» لتدل على غياب الرُّشد من وجهة نظر القائلين. ففي قصة فرعون، يقضي الله سبحانه بأن أمر فرعون غيرُ رشيد. وفي قصة لوط، يشتكي لوط غياب الرشد والعقل في قومه الذين هجموا على ضيفه في سُعارهم الجنسي المنحرف. وفي قصة شعيب، يعبِّر قومه عن خيبة أملهم فيما يتوسمون فيه من حِلم ورُشْدٍ إذْ أمرهم أن يتركوا ما يعبد آباؤهم، وألا يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون بنقص المكيال والميزان، وألاَّ يبخسوا الناس أشياءهم، ولا يَعْثَوْا في الأرض مفسدين. بهذا تكون كلمة «رشيد» قنطرة تربط بين القِصص الثلاث في مدلولها وفي تفرد وقوعها في السورة.

* * *

وفي سورة هود كذلك، جاء قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60]. هذه الآية تَختم قصة عادٍ في سورة هود، وتعلن أن عادًا تَتْبَعُهم لعنةُ الله في الدنيا وفي الآخرة: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وذلك جزاء اتباعهم أمر كلِّ جبارٍ عنيد، كما ورد في الآية التي سبقتها مباشرة [هود: 59] والتي ناقشناها آنفًا. إنه جزاءٌ من جنس العمل. ثم تعلن الآية أنَّ عادًا كفروا ربهم، كأنما تَسُوقُ مُسَوِّغَاتِ هذا الجزاء، ثم تُشَيِّعهم بإعلان إبعادهم وطردهم من رحمة الله مع تحديد اسمهم والتعريف بهم حتى لا ينصرف إعلان الإبعاد والطرد إلا إليهم وإلى أمثالهم، وحتى تعرف الأجيال المتلاحقة أنهم وأمثالهم – لا غيرهم – هم المبعدون والمطرودون: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

من هذه الآية التي تَخْتِم قصةَ عادٍ في سورة هود، يستعير النظمُ القرآنيُّ عبارتَها الافتتاحية ويضعها في الآية التي تُختم بها قصة موسى في سورة هود. قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: 99].[40] وهذه الآية كأختها التي سبقتها تعلن أن قوم فرعون تَتْبَعهم لعنةُ الله في الدنيا وفي الآخرة، كما تَبِعَتْ قومَ عادٍ من قبلهم، جزاءً لاتباعهم أمر فرعون، كما اتَّبَعَتْ عادٌ من قبلهم أمرَ كلِّ جبارٍ عنيد. ثم تعلن الآية أن هذا رفدهم، ولكنه لا يحمل من الرفد إلا اسمه، فهو رفد بائس مذموم: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾. إنَّ العبارة الافتتاحية لهذه الآية: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هي نفسُها التي مرت بنا في الآية السابقة، ولا فرق بينهما إلا أن هذه حذفت منها كلمة «الدنيا» اكتفاءً بورودها في الأولى. وهي عبارة لا ترِد في القرآن كله إلا في هاتين الآيتين اللتين تُختم بهما قصة عادٍ وقصة فرعون في سورة هود للتأكيد على التلاحم اللفظي والمعنوي بينهما، وذلك على الرغم من شيوع الكلمات التي تتألف منها. نفهم من هاتين الآيتين أن أَتْبَاعَ الجبارين والظالمين ملعونون في الدنيا وفي الآخرة.

* * *

وفي سورة إبراهيم، جاء قوله تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]. هذه هي الآية الأولى التي تفتتح بها سورة إبراهيم، وتتحدث عن القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ، أنزله عليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لينقلهم – بإذن ربهم – من التخبط في ظلمات الكفر إلى النور المبصر المنير، إلى صراط الله العزيز الحميد. إنها آية تلخص رسالة النبي ﷺ إلى الناس كافة بهذا التعبير المصور الذي يجسم الكفر والإيمان – وهما مفهومان معنويَّان – كأنهما حَيِّزانِ محسوسانِ يمكن الولوج فيهما والخروج منهما، حتى إننا لنكاد نبصر من خلال التعبير حركة الخروج من الظلمات إلى النور، حركة الانسلاخ من التخبط الأعمى في الظلمات، والذي لا يتبين فيه الإنسان اتجاه حركته، إلى السير القاصد المستقيم في النور الهادي المبين.

يقتبس النظم القرآني هذا التعبير المصوّر، ويفتتح به قصة موسى في سورة إبراهيم كما افتتح به السورة من قبل. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]. ولقد ورد هذا التعبير في سبعة مواضع في القرآن[41]، وفي جميع هذه المواضع يُسند فعلُ الإخراج من الظلمات إلى النور إما إلى الله سبحانه، أو إلى كتابه (أي القرآن)

40 هذه الآية هي التي تَخْتِمُ الحلقة التي وردت من قصة موسى في سورة هود والتي تقع في أربع آيات [هود: 96-99]. ولكن كما ذكرنا في هامش سابق، هناك آية أخرى وردت – بعد الفراغ من قصص المرسلين وأثناء التعقيب عليه – ليس لها علاقة مباشرة بهذه الحلقة في اللفظ ولا في المدلول، وإن كان لها علاقة لفظية ودلالية بقصة صالح في السورة نفسها. هذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 110]. ومن اللافت للنظر أن هذه الآية بنصها ترد في سورة فُصِّلت [فُصِّلت: 45] ولا ترد إلا في هاتين السورتين اللتين تربط بينهما كلمة «فُصِّلتْ» التي لا تقع في القرآن إلا فيهما. فهي تقع مرةً في هود [هود: 1]، ومرتين في فُصِّلت [فُصِّلت: 3، 44]. إنَّ مثل هذه العلاقة الخاصة بين سورتين في المصحف، متباعدتين أو متقاربتين، مما يحتاج إلى بحث مستقل، وهو – على أهميته البالغة – خارج نطاق هذا الكتاب.

41 هذه المواضع هي [البقرة: 257]، [المائدة: 16]، [إبراهيم: 1، و5]، [الأحزاب: 43]، [الحديد: 9]، [الطلاق: 11].

أو إلى رسوله محمد ﷺ، إلا في هذه الآية فإنه يُسند إلى موسى عليه السلام، وفيها يُكلَّف إخراج قومه من الظلمات إلى النور، وتذكيرهم بأيام الله التي نَجَوْا فيها من فرعون، وتحرروا من طغيانه، وعذابه المهين، وذلك في مقابل تكليف الله للنبي ﷺ بإخراج الناس - لا قومه وحدهم - من الظلمات إلى النور. إنّ هذه الخاصية، خاصية إسناد هذا الفعل إلى موسى عليه السلام، هي التي تجعل هذا التعبير متفردًا يربط بين رسالة نبي الإسلام ورسالة نَبِيِّ بَنِي إسرائيل في اللفظ وفي المدلول. وذلك بالإضافة إلى أن هذا التعبير - على شهرته التي اكتسبها من قوته التصويرية - نادر لا يرِد في القرآن إلا في سبعة مواضع كما رأينا، ويقع مرة واحدة في كل السور التي ورد فيها، إلا في سورة إبراهيم فإنه يقع فيها مرتين اثنتين ليربط بين مقطعين مختلفين.

* * *

وفي سورة مريم، جاء قوله تعالى: ﴿**فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ [مريم: 27-28]. هذا النص جزءٌ من قصة مولد عيسى في سورة مريم، ويعرض مشهدًا من المشاهد العجيبة التي صاحبت مولد ذلك الطفل المعجزة العجيب، ذلك الطفل الذي ولدته فتاةٌ عذراء من غير أب. في هذا المشهد تواجه مريم قومها بطفلها النبي وهي الفتاة الطاهرة العذراء التي لا يشك قومها في طهارتها وعفتها، فتستبد الدهشة بهم مما يَرَوْن: هذه ابنتهم المنذورة لله وهي في بطن أمها، المنقطعة لعبادته في المحراب، تأتيهم وفي يدها طفل تحمله! فينادونها باسمها الذي عُرفت به بينهم، وبه نادتها الملائكة من قبل لتعلن اصطفاءها وطهارتها[42] ﴿**يَا مَرْيَمُ**﴾، يا ابْنَتَنَا العفيفةَ الطاهرة: ﴿**لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا**﴾ شنيعًا بالغ الشناعة. ثم يبالغون في تقريعها وإحراجها، وينادونها بكُنْيَةٍ جديدةٍ لم تُسمَّ بها في القرآن إلا في هذه السورة: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾، يا من تُشْبِهِينَ هارونَ في انقطاعكِ للعبادة وتَبَتُّلِك، كيف تفعلين ما لا يفعله «إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا؟»[43]

لقد كانت هذه الكنية ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾ التي خوطبت بها مريم في هذه الآية مثار تساؤل عند المفسرين، كما كانت فرصةً انتهزها المبشرون والمستشرقون للطعن في القرآن. إنَّ مريم لم تكن أخت هارون أُخُوَّةَ النسبِ المباشر لأنها لم تَعِشْ في عصره، فهو سابق عليها في الزمان، وبينه وبينها أكثرُ من ألفِ عام. فكيف جازت تسميتها إذَنْ «أختَ هارون»؟

فالجواب على هذا من وجوه: الوجه الأول هو أنّ الأُخُوَّةَ المقصودة هنا هي أُخُوَّة الشبه في الصفات، لا أُخُوّةَ النسب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [الزخرف: 48]، فليست الآيات مما يقع منه التناسل. فمريم هنا أختُ هارون بهذا المعنى، معنى

42 قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: 42].

43 سيد قطب، **في ظلال القرآن**، 2308. سبق ذكره.

الشبه في الصفات.[44] لقد كان هارونُ هو أَوَّلَ من أسس المعبدَ الإسرائيلي، وَالكَهَنَةُ من بعده من ذريته وهم سَدَنَةُ المعبد. ولقد كانت مريمُ أشبهَ الناس به لأنّها كانت منذورةً لله وموهوبةً لخدمة المعبد. والوجه الثاني أنّه لو كانت الأُخُوَّةُ المباشرة هي المقصودة لقيل: «يا أخت موسى»، لأنّ موسى هو النبيُّ المقدَّمُ على هارون، ولأنّ أخته – واسمها ميريام في العهد القديم – شخصية معروفة في القرآن، وهي التي دلت آل فرعون على من يرضع أخاها الصبي موسى، كما مرَّ بنا. ولكن القرآن اختار ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ للشبه القائم في الصفات الشخصية بين مريم وبين هارون رغم الفارق الزماني بينهما، عمدًا وقصدًا، لا سهوًا ولا خلطًا بين شخصية مريم العذراء وميريام أخت موسى، كما يظن الذين لا يعلمون، والذين يقرؤون القرآن قراءة سطحية، ولا يدركون أنّ السورة وحدة نصّيّة واحدة يفسّر بعضها بعضًا.

والوجه الثالث أنّ قومها لم ينادوها بكُنْيَةٍ تنسبها إلى أبيها «يا ابنةَ عِمْران» مع أنّ هذه الكنية تؤدي لهم الغرض نفسه، غرض التوبيخ والتعيير الذي كانوا يريدونه بإضافتها إلى أصل كريم، إذْ إنَّ آل عمران ممن اصطفاهم الله على العالمين، وإن الله قد أضافها إلى أبيها في القرآن[45]، مما يدل مرة أخرى على أنّ صفة التنسّك المشتركة بينها وبين هارون هي السبب في إضافتها إليه. والوجه الرابع أنّ القرآن يذكر بصراحة قاطعة أنّ مريم كفَلَها زكريا، وزكريا هو والد يحيى ث وكلاهما عاش في الفترة نفسها مع مريم كما هو معلوم من التاريخ. ومن ثَمَّ فلا مجال للقول بأن القرآن يخلط بين مريم العذراء وميريام أخت موسى.

والوجه الخامس، وهو الذي في صميم بحثنا هنا، هو أننا نجد دليلًا لغويًّا على صحة ما نقول في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53]. هذه الآية جزء من قصة موسى في سورة مريم، وهي حلقة قصيرة تقع في ثلاث آيات فقط [مريم: 51-53]. فإذا نحن دققنا النظر في ألفاظ هذه الآية [مريم: 53]، لاحظنا عددًا من الأمور. أولًا: أنَّ اسم هارون فيها يأتي مقترنًا بلفظ الأخ ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ كما جاء مقترنًا بلفظ الأخت في قصة مريم ﴿أُخْتَ هَارُونَ﴾. واسم هارون الذي يتكرر في القرآن عشرين مرة، لا يقع مقترنًا بلفظ الأُخُوَّة إلا سبع مرات[46]، ولا يقع هذا الاقتران في موضعين في سورة واحدة إلا في سورة مريم [مريم: 28، 53]، مما يدل على وجود التلاحم بين الآيتين، كما علمنا من النوع الرابع من أنواع التلاحم اللغوي في القرآن. وهذا التلاحم يفيد أن هارون الذي في قصة مريم هو نفسه الذي في قصة موسى وليس هارونًا[47] آخر. ثانيًا: أنّنا نواجه في هذه الآية [مريم: 53] التي في قصة موسى نفس المشكلة الزمانية التي واجهناها في قصة مريم. فقد كان هارونُ أكبرَ من موسى في السن. والآية تقول إنّ الله وهبه لموسى من رحمته، كما وهب عيسى لمريم [مريم: 19]، ويحيى لزكريا، [مريم: 5-7]، وإسحاق ويعقوب لإبراهيم [مريم: 50]. فالموهوب لهم في كل هذه الحالات

---

44 وهذا لا ينفي معنى النسب البعيد بين مريم وهارون لأن كليهما من ذرية إسرائيل.

45 قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12].

46 السور التي يقع فيها اسم هارون مقترنًا بلفظ الأُخُوَّة هي الأعراف [142]، ومريم [28، 53]، وطه [30]، والمؤمنون [45]، والفرقان [35]، والقصص [34].

47 التنوين هنا للتنكير كما هو معروف في النحو.

متقدّمون في الزمان على الهبة، إلا في حالة موسى فإنه متأخر في الزمان عن الهبة لأن هارون وُلد قبله. إذن فكيف جاز أن يقال إن الله وهبه لموسى وهو سابق عليه في الزمان؟ الواقع أننا إذا تأملنا الآية مرةً أخرى، وجدنا أنّ الهبة في حقيقتها كانت نُبُوَّةَ هارون، ولم تكن شخص هارون.[48] والآية تنص على ذلك نصًّا: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾ [مريم: 53]. فقد وهب الله له أخًا نبيًّا، أي أنه أشركه في صفته، صفة النبوة التي كانت لموسى قبل هارون، كما أشرك مريم في صفة التنسك التي كانت لهارون قبل مريم. وقد سأل موسى ربَّه من قبل في سورة أخرى أن يَشُدَّ بهارونَ أزْرَهُ ويُشْرِكَهُ في أمره. قال تعالى: ﴿**اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ [طه: 31-32]، والأمر الذي عناه موسى هنا هو النبوة بلا شك.

نحسب أنّ هذه الوجوه الخمسة التي سردناها تقطع بما لا يدع للشك مجالًا بأنّ هارون الذي في قصة مريم هو أخو موسى وليس هارونًا آخر، وأن القرآن اختار هذه الصيغة التعبيرية عامدًا قاصدًا لإبراز المعاني الدقيقة الخفية التي كشفت عنها هذه المقارنة المتأنية بين الآيتين، لا سهوًا ولا خلطًا، كما يظن الجاهلون والظالمون، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا. وهذه المقارنة تَقِفُ بنا مرةً أخرى أمام العظمة الباهرة لهذا الكتاب الكريم، وأمام هذه الدقة اللغوية والدلالة الخفية المعجزة التي تربط بين قصتين وقعتا في زمانين متباعدين، ووقعتا لشخصيتين تجمع بينهما آصرة الزهد والانقطاع للعبادة، كما تجمع بينهما آصرة النسل النبوي العريق الكريم.

* * *

وفي سورة الصافات، جاء قولُه تعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ [الصافات: 76]. وقولُه تعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ [الصافات: 115]. هاتان الآيتان تقعان في قصتين مختلفتين من سورة الصافات. فالأولى جزء من قصة نوح والثانية جزء من قصة موسى عليهما السلام، وتشتركان في وقوع عبارة ﴿**مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ في ختامهما. وهذه العبارة نادرة في القرآن ولا تقع فيه إلا ثلاث مرات: تقع مرتين متصلةً بقصة نوح، وتقع مرةً متصلةً بقصة موسى. ولا تقع مرتين في سورة واحدة إلا في سورة الصافات، ولا تُذكر في قصة موسى إلا في هذه السورة كذلك. فوقوعها مرتين في سورة واحدة دون سائر السور في القرآن دليل على أنها مصممة لتكون آصرة لغوية تربط بين قصة نوح وقصة موسى عليهما السلام. ولكن لماذا صُممتْ هذه العبارة لتكون في هاتين القصتين دون غيرهما من القصص في القرآن؟ فالجواب على ذلك أن المقصود بالكرب العظيم هو الغرق، والغرق عقاب أصاب الله به قوم نوح وقوم موسى ولم يصب به غيرهم. والغرق يُذكر في سياق قصة نوح في الصافات: ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**﴾ [الصافات: 82] ولكنه لا يُذكر في قصة موسى اكتفاءً بذكره السابق، وبما توحي به عبارة ﴿**الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾ من ترابط بين القصتين.

---

48 لقد تنبه المفسرون منذ وقتٍ مبكر إلى أن الهبة في هذه الآية إنما تعني نبوة هارون ولا تعني شخصه لأنه كان أكبر من موسى، وإن لم يخطر لهم أن يربطوا بين هذه الآية وبين التي في قصة مريم. ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده عن ابن عباس أنه قال: «كان هارونُ أكبرَ من موسى، ولكنْ أراد: وهَبَ له نُبُوَّتَه.» انظر: ابن جرير الطبري، **جامع البيان**، 15: 561. سبق ذكره.

* * *

وفي سورة الزخرف، جاء قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 52]. هذه الآية جزء من قصة موسى مع فرعون في سورة الزخرف، وفيها ينادي فرعونُ قومَه ويتباهى عليهم بأن له مُلْكَ مصر والأنهار تجري من تحته، كأنما يريد أن يوحي لهم بذلك أنه ندٌّ لرب العالمين الذي له ملك السماوات والأرض، والذي يدعوهم إليه موسى. فهو يسألهم أولًا سؤالًا فيه طلب الإقرار على دعواه: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟﴾ ويسألهم ثانيًا سؤالًا فيه اتهام لقدرتهم على الفهم والإدراك: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟﴾. ووراء هذَيْنِ السؤالين يخفي تفاهة دعواه بأسلوبِ طاغيةٍ ماكرٍ خبيثٍ يعرف كيف يستغل جهل الجماهير.

ثم يريد النظم القرآني أن يربط هذا المشهد من قصة موسى بمشهد من مشاهد القيامة في السورة، فيقتبس منه كلمة «نادى» وكلمة «ملك»، ثم يضمهما إلى كلمات أخرى لينشئ منها نصًّا جديدًا على طريقة القرآن في الاقتباس المبدع. قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]. في هذا النص الجديد نرى المجرمين ينادُونَ مالكًا، وهو خازن النار، ويتوسلون إليه أن يَقْضِيَ اللهُ عليهم فيموتوا وينتهيَ عذابهم، فيأتيهم الرد الأليم: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، باقون في العذاب، خالدون فيه، لَا خلاص لكم منه. وقد رأينا في النص السابق أن فرعون كان ينادي قومه يتباهى عليهم بملكه الأرضي الصغير. فاليوم ينادِي المجرمون في النار، ومنهم فرعون وقومه، خازنَ النار أنْ يقضي الله عليهم فلا يستجابُ لهم. وهكذا يتلاقى المشهدان من الناحية الغرضية.

وإذا نظرنا إلى التلاحم اللغوي بين المشهدين، وجدنا أن مادة «نادى» تتكرر في القرآن ثلاثًا وخمسين مرة، ومادة «ملك» تتكرر مائتين وستَّ مرات. ولكنهما على كثرة تكررهما هذا لا تجتمعان في آية واحدة إلا في ثلاثة مواضع في القرآن كله: موضعان في الزخرف وموضع في آل عمران[49]، مما يعني أنهما لا تتكرران مرتين في سورة واحدة إلا في هذَيْنِ الموضعين من سورة الزخرف. وهذا دليل على أنهما مصممتان لتكونا آصرتين لغويتين تربطان بين هذَيْنِ المشهدين. فكلمة ﴿وَنَادَىٰ﴾ في الآية الأولى تقابلها كلمة ﴿وَنَادَوْا﴾ في الآية الثانية. وكلمة ﴿مُلْكُ﴾ في الآية الأولى تقابلها كلمة ﴿مَالِكُ﴾. إنَّ هذا التناظر الواضح الفريد بين هاتين الكلمتين في الآيتين يؤكد بما لا يدع للشك مجالًا أن عبارة ﴿يَا مَالِكُ﴾ لم تُقرأ يومًا «يا مالِ» بحذف الكاف للترخيم كما تقول كتب التفسير، لأن حذف الكاف يُخِلُّ بالتناظر المتفرد الذي بُنِيت عليه الآيتان. يقول المفسرون: «وقرأ النبي ﷺ على المنبر: ﴿يَا مَالِكُ﴾ بالكاف[50]، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن مسعود، ويحيى، والأعمش: ﴿يَا مَالِ﴾

---

49 ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. في هذه الآية يجتمع النداء والملائكة.

50 جاء في صحيح البخاري: حدثنا عليُّ بن عبد الله: حدَّثنا سفيانُ عن عمرو عن عطاء، عن صفوانَ بن يعلى عن أبيه ڤ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف: 77]. قال سفيان: في قراءة عبد الله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِ﴾. انظر: أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256هـ)، **صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، كتاب بدء الخلق** [حديث: 3230] (دمشق – بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الأولى، 2002)، 798.

بالترخيم، ورويت عن عليٍّ ﷺ ورواها أبو الدرداءِ ﷺ عن النبي ﷺ.»[51] إنَّ النظم القرآني لا يقبل قراءة «يا مالِ» لإخلالها بسبكه المحكم القائم على هندسةٍ دقيقةٍ بالغةِ الدقة، ومن ثَمَّ فلا يمكن أن يَصِحَّ ما نُسب إلى ابن مسعود وغيره من الصحابة من القراءة التي تخالف ما في المصحف، بل لا ريب في بطلانه.

* * *

خاتمة

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة الدالة على تلاحم قصة موسى مع السور التي تقع فيها. وهناك سور كثيرة فيها حلقات من هذه القصة لم نسْتَقِ منها أمثلتنا لدلالة ما سقنا من الأمثلة عليها. وبهذا نختم هذا الفصل الذي درسنا فيه أمثلة من قصة آدم وقصة موسى في القرآن وأثبتنا فيه تلاحم القصة مع سورتها في القرآن. وقد تبين لنا من خلال استعراض الأمثلة أنه ما من قصة تتكرر في القرآن إلا ولها من السورة التي تقع فيها نصيب من الألفاظ والتراكيب يربطها بجسم السورة برباطٍ محكمٍ وثيقٍ يدل على وجود القصد والإرادة في تنظيم السورة وفي إيراد ما يقع فيها من القصة. والآن ننتقل إلى الفصول التي نخصصها للحديث عن تلاحم البناء اللغوي على مستوى السورة الكاملة.

51 انظر: ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز**، 1687. سبق ذكره.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com